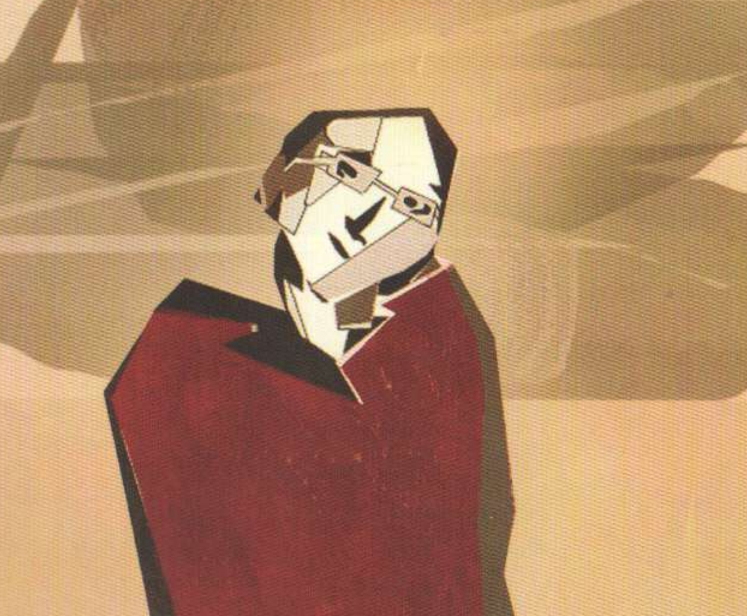
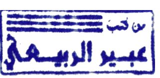
فالح عبد الجبار

الهورلا

أوراق الجنون



مكتبة
الفكر
الجديد



فالح عبد الجبار

الهورلا
أوراق الجنون

رسوم فاطمة مرتضى







الهورلا
أوراق الجنون
فالح عبد الجبار

Alhorla
Papers of Madness
Faleh Abdul- Jabbar

.....

الطبعة الأولى 2014
إصدار دار ميزوبوتاميا للنشر والتوزيع

عدد النسخ 2000 نسخة
القطع 15 ×21

First Published by Dar Mesopotamia
for Publishing and Distribution- Baghdad- Iraq 2014

:Designed and Lay- Out
Mohamad Hayawl



(1)

أسميها الهورلا- أي أوراق الجنون، و أسميها "قصة حرب معلنة". وأسميها آلام ذاكرتي اللبنانية.
استغرقتني خربشة هذه الأسماء هنيهة خاطفة. جاءت هكذا بلا سابق تفكير. أحدها مستمد من عنوان كتاب مذكرات فرنسي كلاسيكي - محدث، لعله موباسان إذا لم تخنّي الذاكرة، دبجها كاتبها لحظة أطبقت عليه أبواب الجنون، وفشل، وهو الكاتب المفوّه، في أن يجد لذلك الجنون لساناً يفصح ويجاهر. أجدني اليوم إزاء الحرب في مثل هذا الخرس. ماذا يفعل الأبكم غير أن يتأمل فورات صمته؟
العنوان الثاني هو تذكير برواية غابرييل غارثيا ماركيز "قصة موت معلن" و بطلها اللبناني - اللاتيني سليم نصار، العاشق القتيل، سارق غشاء العذارى، في بلد يقدس البكارة ويحب الثأر لفكرة الشرف المهدور. كان موته ثمن الهوى، وانقطعت حياته الفتية، بموت مجاني يحيلني إلى مئات العشاق الذين ماتوا بالمجان بسكين الحرب، وثأر الخوذة العسكرية. العنوان الثالث يختصر عمراً،

فذاكرتي اللبنانية مديدة تشكلت في سبعينات القرن الماضي وانقطعت في ثمانيناته ثم عادت في مبتدا الألفية الجديدة. وهي سلسلة متصلة في مدينة أحبها بأضعاف ما يمكن أن تحبني. لن أكتب عن الأشلاء المتطايرة ولا عن المعارك، بل عن الإنساني، اليومي، المعاش، والشخصي، عن الأحياء، الشهود، متأملاً في ثنايا ذلك معاني ما تعلمناه، مفاهيم ومقولات و مثلاً أفلاطونية عليا.



(2)

الحرب مستعرة منذ أيام وهي تقترب من بيروت. ها أنذا أغادر بيروت ليلة الخامس عشر من تموز2006، وها أنذا أعود بعد أيام. جاري، الإعلامي، جمال فياض، أبدى من السرور لعودتي قدراً يوازي الاستغراب.

ـ شو جابك لهالبلاد؟

ثمة دهشة شفيفة في هذا السؤال المهذب.

ـ "مشكلجي"، قلت، من دون تفكير. ابتسم وابتسمت . ثمة انفجارات تدوي بعيداً.

أحب هذه الكلمة، "مشكلجي". فيها فصاحة مكثفة، تختصر ثلاث كلمات: انخراط في المشاكل. فاطمة تعشق كلمتي "فنّاص" و"عكروت" البيروتيتين بامتياز، وتنخرط في ضحك مجلجل حين ينطق بأيهما أحد. عَلق الكلمات خطير. كما كانت تتهجى الكلمات العامية اللبنانية تهجئة بكماء: ما هذا: بونص حوقون؟

ـ أين قرأت هذه الكلمات؟

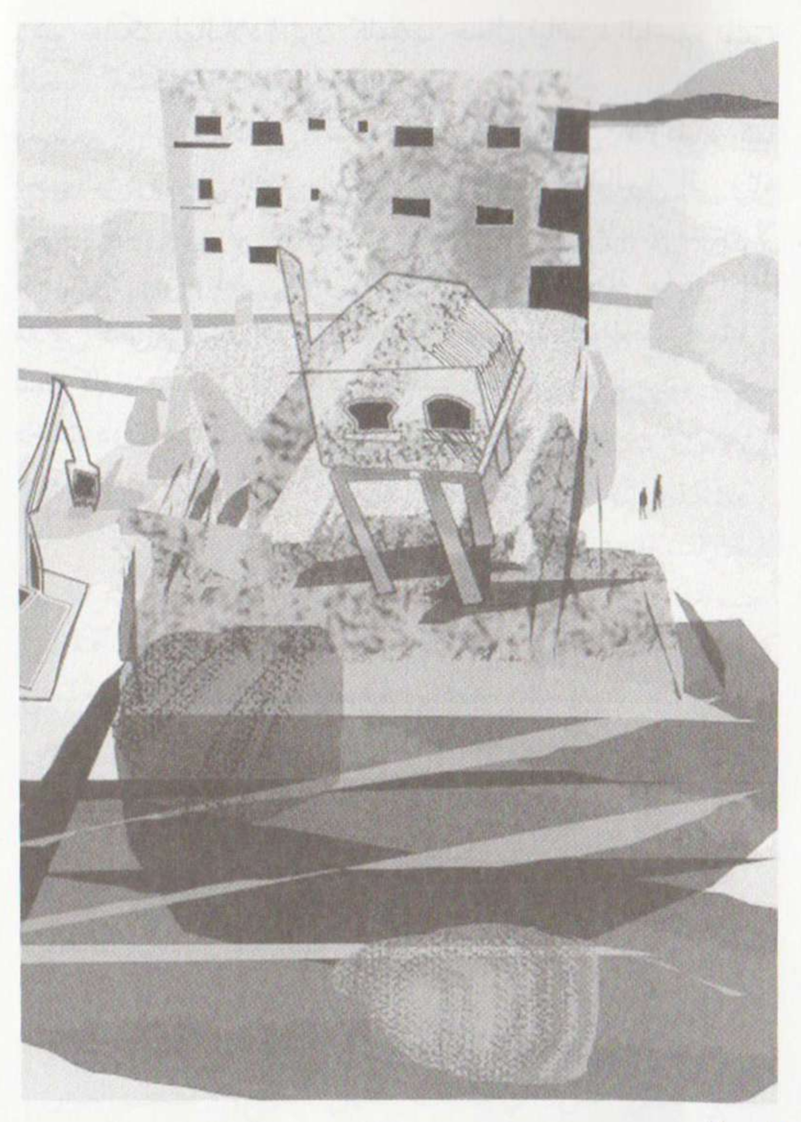
ـ هناك على لوحة إعلان، في الجهة المقابلة من الاوتوستراد.

استدير على أعقابي بالسيارة، لأرى جلية هذا المفكر الخطير، الذي يلوح فينيقياً من زمان أرسطو: السيد بونص حوقون!

في وسط الاعلان المزدان بشتى أنواع السلع الدنيوية الزائلة، كلمتي: بنُصَ حقّن، أي بنصف حقهن (السلع) = نصف السعر.

قلت: هذا ناقد لبناني معروض للبيع بنصف السعر!

ـ شو جابك لهالبلاد؟ ترن كلمات جمال فياض، الباسم، طليق اللحية. "مشكلجي، أنامشكلجي".
مشكلجي؟ أي مشكلجي؟ لست موقناً أن المشاكل تطاردني، كما يحب الباكون على النفس الظن بحالهم. أمقت هذا الميل إلى رثاء الذات. كما أنني غير موقن بأني أطارد المشاكل. فلست متنبئاً، لا أرضياً ولا جوياً. لعلي أهوى المشاكل. لكن المشكلة تواجه أربعة ملايين كائن في لبنان اليوم. إن كان ثمة سوء حظ، فهو نحس جماعي. لبنان كله متمشكل! وأنا معه في المغطس نفسه. باغتتنا الحرب جميعاً. دخلت دون استئذان. هدير المعارك ما يزال في الجنوب.



الهورلا

(3)

قبل أن يدلف الجنوب "ساحة الوغى" كنت في زيارته صحبة عالم الاجتماع، الصديق أحمد بعلبكي الذي جرّني بلطفه المعهود جراً إلى جنوبه، مع فريق من السوسيولوجيين اللبنانيين، إلى القرى والبلدات، واحدة واحدة، من الخيام شرقاً، مروراً بمرجعيون وبنت جبيل وتبنين وعيناتا، حتى شارفنا التلال المطلة على الناقورة. وحده العرقوب ظل في منأى عنا. استشرفناه عن بعد: سفوح جبل الشيخ، كفرشوبا، أحراش راشيا الفخار، زيتون الهبارية ومزارع شبعا، موطن النزاع.

كان مضيفي يومئ إلى قرى جنوبه، ضيعه، زيتونه، وتينه، أساطيره، وخرافاته. كانت سبابته التي تومئ إلى القرى تندس في ذاكرتي لتوقظها من سبات ستة وثلاثين عاماً. جاءت الزيارة قبل الحرب بأسابيع، لكن خيالي عاد إلى عام 1971.

في كفرشوبا السنية (في العرقوب) تعلمت، لأول مرة، النزول إلى ضيعة حلتا، فبساتين الزيتون في مزارع شبعا. كانت هضبة المطلة والتماعات بحيرة طبريا تُرى بالعين المجردة. تعلمت دروب حلتا الخفية، حفيف أشجار اللوز، شذى الحبق، خضرة الزيتون، برقشات فساتين صبايا الضيعة. شيخ مرجعيون، ابرهيم اللقيس، ما يزال ماثلاً في ذاكرتي: قامته القصيرة، جسده النحيل، يطل عليك بجبّة فضفاضة، وعمامة سنية بيضاء، ضخمة، ينوء بها رأسه وهو يكزّ بأسنانه على لفافة تبغ (مارلبورو) لا تفارق شفتيه. هو قاضي

مرجعيون. ابناؤه اليساريون (محمد وغازي وآخرون) استضافونا في لحظة من العمر. كفرشوبا كانت ملاذي لأسابيع. تعلمت فيها جمع الماء في آبار الاسمنت، وكرعه منقوعاً باليراقات والديدان (الحميدة؟). واقتضى الأمر رفقة طويلة كي أفقه لهجة الجنوب، حيث ينكسر حرف الألف ليصير يائا: طلال يصير طليل. وأما مجلة "الحوادث" فلا تكاد تُفقه: حويدس.
وفي راشيا الفخار المسيحية نبتت في قلبي اول قصة حب لم تتعدَ إلا قليلا نظرات، وبسمات خفية، وقصاصات ورق فيها تنهدات عذراء قروية أكملت البريفيه، وانشاء مثقف بائس، مثالي، لم يعبر هوة الوعي اليومي لهذه الأصقاع، فذاق الفشل. أمضينا ليلة رأس السنة في قبو كنيسة، إتخذناه ملجأ من القصف. كل الأنفاس الدنيوية في الظلام المطبق تتخيلها آهات مشفرة من الصبيّة المعجبة، حتى لو اتضح أنها خرير نفس مدخن مخضرم أو عجوز فانية. الحلكة تطلق الخيال، تلامس الأيدي، أو تقاطع أصابع القدم، وإن كانت عفو الخاطر، تحمل وخزات هوى. كانت أجمل ليلة قصف. رغم البرد كانت يد ماري حارة، معروقة. لعلها اليوم في الخمسين. لو رأيت عينيها مرة واحدة اذن لقبلتهما واسترحت.
لا أدري اليوم ما حل براشيا الفخار، وفلاحها المخضرم طانوس جرجس، اليساري العتيق. كان يبدو صلداً مثل سنديانة، ويداه مثل معول. إياك أن تشد على يديه عند المصافحة، لئلا يهرس كفك تعبيراً عن حرارة "رفاقية" أو حسن وفادة جنوبي. عثرت مصادفة على كلاشنيكوف تركه أحدهم في شارع في كفرشوبا،

فأهديته إلى جرجس، وبه كسبت مودته الأبدية.
دعاني مرة، وثلة من أهل القرية ومجموعة من مقاتلي المقاومة الفلسطينية للتوجه إلى قرية الخيام لتشييع معلم يساري مزقته قذيفة اسرائيلية. بدت الخيام قريبة بالعين المجردة. استغرق الوصول اليها مشياً عبر الأحراش ساعات وساعات، ولما بلغنا تخومها فاجأنا مطر مدرار وثلة من جنود الجيش اللبناني. الفوهات مصوبة من الجانبين. بدا الوضع غريباً. الضحية كانت قد شيّعت ودفنت قبل وصولنا، وعدنا مثل هررة منقوعة نقعاً.



البداية



(4)

ها أنذا الآن في الخيام بعد كل هذا، في معسكر الاعتقال. بدا لنا المعتقل نحن العراقيين لطيفاً، قياساً بزنزانات الأهل في بغداد، وهي اقفاص صغيرة تحت الأرض. ها أنذا أعبر الزمن، بين الخيام المبللة في آذار 1970 وخيام حزب الله الساخنة في مطلع تموز 2006. رغم الشمس الحارقة سرت في أوصالي رعدة البلل القديم من آذار 1970.

جنوب مضيفي اليوم، هو الجنوب الشيعي، الراديكالي، المقاوم. وجنوبي هو الجنوب الفلسطيني – اللبناني المقاوم أيضاً. الأول أزاح الثاني لا لشيء إلا ليأخذ مكانه. هذا الإبدال كان عنيفا.

أتذكر بحثاً لمفكر اسرائيلي هو ايمانويل سيفان Emanuel Sivan في عنوان "الإسلام الراديكالي Radical Islam، ينعى فيه موت النزعة القومية العربية بسبب صعود الاسلام السياسي. والمغزى واضح: الاسلام السياسي عدو للمدارس القومية، وهو في سبيله إلى تدميرها، وبدمارها يزول عدو مكين لإسرائيل. أما النتيجة فإن الدراسات السوسيولوجية تبيّن أن الاسلام السياسي هو الشكل الجديد للنزعة القومية أو هو مزيج الإثنين. إسرائيل تعرف هذا الآن خيراً من سيفان ، المفكر الرغائبي.



ماري الجنوب

(5)

"اليهود يكرهون لبنان، كل لبنان" قال مهاجر، وهو يكزّ على أسنانه عند لفظ كلمة "كل" و"لبنان" ليخرج من قوقعة الطائفة.

في اليوم ذاته، والحارة ذاتها (مار تقلا)، وعلى مبعدة أمتار من موقع هذا الحوار، يقول آخر، كان مقاتلاً في الحرب الأهلية: سمعت؟ الاسرائيلية رموا منشورات قبل القصف على الحارة. "مذوقين" (أصحاب ذوق) مش هيك؟ هززت منكبي. كلمة "الذوق" عسيرة على التماس مع فعل التدمير، لكن الإشارة عن الذوق تفيد نوعاً من "الكياسة" في "القتل" أو في غيره. متى كانت الحرب كيّسة؟.



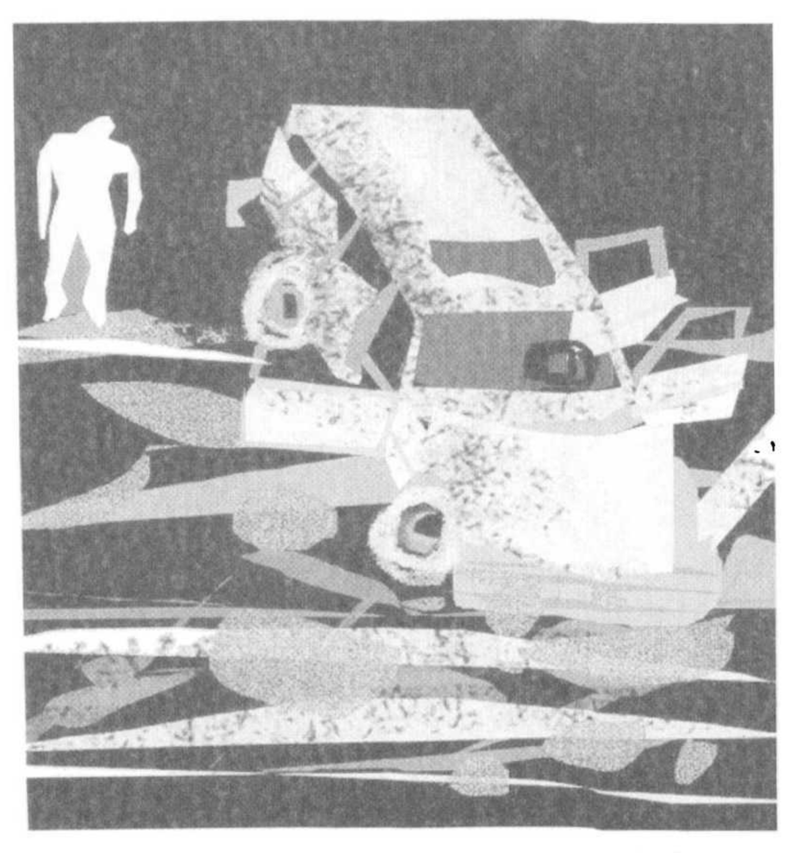
رؤية الاستشراقي

(6)

كل المشاهد فِي الحرب تبدو مزدوجة: وميض القذائف ودخانها ينبجسان أولاً في منظر صامت. ثم يأتي، بعد هنيهة السكون، دوي الإنفجار. تتساقط صواريخ إسرائيل هنا أيضاً مرتين، مرة على قرى وبلدات الجنوب، ومرة على ذاكرتي. الطائرات توجه إحداثيات التسديد إلى بنت جبيل، ثم إلى ذاكرتي، هناك الوميض، وهنا الإنفجار.

لم تكن القذائف تسقط على اسماء بلدات غفل، بل على بشر أحياء لهم عندي اسماء وسحنات وعناوين. الجغرافيا المحض تنمحي، البشر يشخصون.

صحوت في اليوم الرابع للحرب الجديدةِ وأنا في بنت جبيل. أمضي في السيارة صوب تبنين. الطرق "مسكّرة". تراب وصخور. بعد لحظات من العياء المعروق تذكرت أني في رقادي في منزلي البيروتي. ما أسهل اختلاط الأزمنة في حجيرات الذاكرة؟ ماذا لو ضاعت الفواصل في هذه الحجيرات: فيروس اختلاط الأزمان، بكتيريا اللامنطق، حافة الجنون.



ازدواج المشاهد

(7)

تطفح الحرب على حياة المدينة بغتة. روتينها اليومي يضطرب أمام الرائي. ارتفاع طفيف في أسعار بطاقات الهاتف، أجرة التكسي، الخبز، الغاز... روتين المرور يتغير هو الآخر: الزحام الخانق اختفى بعد هرب ربع مليون سائح أو يزيد، وعشرات الألوف من الزوار الأجانب، جلهم من المغتربين اللبنانيين، وتتحمل حكومات الغرب (اوستراليا، فرنسا، انكلترا، المانيا والولايات المتحدة) تكاليف إعادة اللبنانيين من بلدهم الأم، إلى بلدان التبني، وهذا ملزم قانوناً. (لم أسمع أن حكومة من العرب العاربة أو المستعربة تدفع أجرة سرفيس لمواطن).

لكن الاضطراب الأول في الروتين هو ما يسميه البيروتيون "زعرنة" السيارات. شارعنا المؤدي إلى سنتر مشخص في مينا الحصن (قريبا من اوتيل فينيسيا) ذو ممر واحد. أصادف سائقاً "أزعر" مرة كل شهر: يقود سيارته عكس السير، ولكن بحذر موارب، وعيناه موجهتان بعيداً عن أنظار الساخطين، تهرباً من حرج المواجهة. في اليوم العاشر من الحرب رأيت، أنا السائر على القدمين، أربع سيارات تسير عكس السير. أربع سيارات بأربع عجلات ضد قدمين. حدجني سائق بنظرة ازدراء، بل احتجاج: أغرب عن وجهي.

إنها لحظة الفوضى. ذلك الإحساس الخطير بالتحلل من كل قيد أو ناظم .لحظة الفوضى المنظمة التي تصوّرها هوليوود قبيل فناء الأرض، والتي يعيشها الأميركان بمجرد انقطاع التيار

الكهربائي أو هبوب عاصفة مثل عاصفة إعصار كاترينا. يقول علماء الاجتماع أن ثمة 2 في المئة من السكان يميلون عادة إلى المغامرة والمجازفة، في عالم الأفكار والاختراعات والحروب و الرحلات والاعمال والسياسة و... و... و... الإجرام أيضاً. فهم مجبولون على نشدان ذلك التوتر المقترن بالمجهول والخطر. هذه الصفوة من الإثنين في المئة، العاشقة للمجازفة، هي التي تجرّ وراءها الممتثلين، من القانعين أو الكسالى أوالقرود المقلدين، أي من البقية (98 في المئة).

الحرب، أول ما تبدأ، إنما تبدأ بتدمير الروتين اليومي للحياة: ايقاعك الخاص يتبدد بغتة، نثار من خلائط سديمية.

لكأنك في الفضاء و تتقطع لحظة كل الخيوط التي تجمع شتات بيتك ومكتبك ورفوف كتبك. ها هي ذي تعوم سائبة ومبتعدة.

الحرب تبدأ بتخريب وجودك اليومي: انقطاع الجرائد، انقطاع الماء الكهرباء، انقطاع الأصدقاء، انقطاع البنزين...

ألم أقل أنها سلسلة انقطاعات، كما تقطيع الأوصال. وأيضاً ثمة انقطاعات أخرى: الكف عن التفكير العقلي، أي معنى للعقل حين تتطاير الرؤوس مبتورة عن الأجساد. مرة قال ديستويفسكي: تخيلوا أن الرأس المتدحرج من المقصلة يفكر للحظة بحاله! تخيلوا أن الحياة المقطعة تفكر.

حرب على الحياة حرب على ايقاعات الحياة وحرب على كل مباعث الاطمئنان والدعة.



حياة مقطّعة

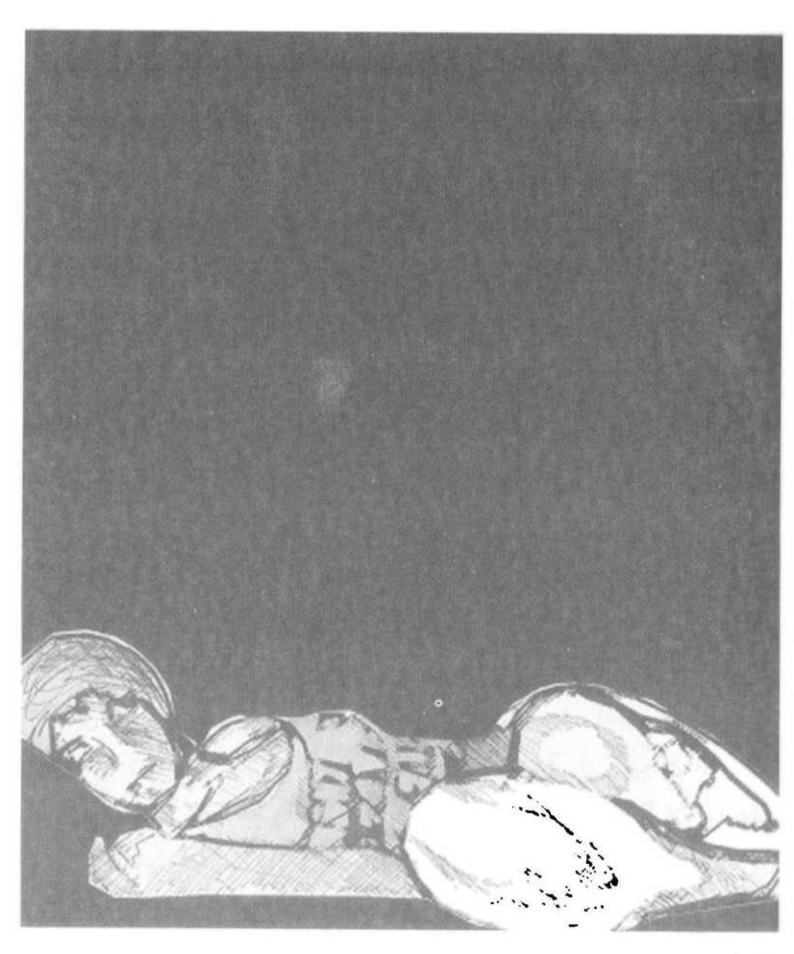

مكتبة
الفكر
الجديد

(8)

ثمة قصيدة حلمت انني اقرأها بالانجليزية من زمان (عام 2004). في المنام اذن طالعتها، ورحت في المنام أيضاً أترجمها إلى العربية. في الصباح كتبت الترجمة، أدناه شذرات من مقاطع غير قاسية منها: لعلها جزء من مزاج اللاجدوى الذي داهمني و أنا أرقب موت الأبرياء، ومزاج الكآبة الذي امسك بتلابيبي عاماً أو يزيد، مدمراً كل ما كنت أحسبه مأمولاً أو ممكناً. لا اتذكر اسم الشاعر في المنام، و لا أدري إن كان له وجود.

خواء؟
نحن الجنس البشري
الجنس الأبيض، الجنس الاصفر، الجنس الأسود،
الخلاسيون، الهجائن، والخلائط
نحن المحاطون بالسبايروجيرا والرخويات
ننمو بالانقسام، ثم نعود القهقرى ذرات
مثل أية حجارة
هباء محض، عدم أزلي، وجود بلا وجود
جسيمات هشه
محكومة مثل الحصى والنيازك، بقانون الجاذبية
في لامبالاة الكون،
على كوكب ناء لا اسم له
في سكون
ما بين الكواكب اللامأهولة من صمت

بحثت شهراً، في نوبات تفتيش بوليسي يومية، في كل مجاميع الشعر الفرنسي والانكليزي والروسي المترجم للعربية، أو باللغة الانكليزية، لم اجد لهذه القصيدة أثراً. بي ما يشبه مس الجنون لمعرفة هذه القصيدة. ليست لي قطعاً، ربما اخترعتها في هلوسة لم أفطن لها، مقطعها الأخير يبدو كما لو أنها كتبت بقلم رائد فضاء تاه في غياهب الكون الفسيح، وحيداً. أذكر أني حلمت مرات بأني قابع لوحدي على كوكب ناء، لا أدري كم يبعد من سنوات ضوئية عن أمنا الأرض! لكن من دس هذه القصيدة؟ وكيف نبتت؟ لا أدري.



خواء

(9)

من حدة الدويّ نكتشف المسافات. ثمة انفجار باهر. لعله مصفى الزهراني (جنوب بيروت)، قلت في دخيلتي. دوي صاخب. ثمة اهتزاز في الهواء القريب من البلكون. الضاحية من جديد. يختلط رعد الغارة بأجراس الكنائس، فأتذكر أن اليوم هو الأحد. وكنيسة مارتقلا التي أراها من البلكون في آخر وادي نهر بيروت، لا تغفل عن طقوسها الأليفة، وهي محاطة بشذى الليمون والبرتقال، والأعشاب البرية، وندى الصخور. لكن سائر الأيام تبدو، لقلة المارة، وصمت الأرصفة، وسكوت الشوارع، آحاداً ولكن بلا أجراس. أحب ايقاع نواقيس كنائس مار تقلا. أما دوي الانفجارات فهو تذكار بالقدرة الفائقة على التدمير جهة الرامي وباليسر البالغ للانمحاء من الوجود جهة المرمي. الانفجار أيضاً دليل قسوة.

مرة سمعت طنين الشمس، ذلك الأزيز الغريب، المسجل بمسبار فضائي عن بعد ملايين الأميال من هذا النجم الذي أسهم في صنعنا. لدى تضخيم أزيز الشمس بمكبرات الصوت يتخيل المرء أنه ينصت إلى انفجارات نووية متتالية. لو أمكن احتمال حرارة الشمس ساعة واحدة لجن جنون ساكن كتلة البلازما هذه أو الهابط على أديمها، من شدة الدوي والفرقعات المتصلة.

المدن الكبرى باتت مفرخاً للضجيج لا ينقطع. السكن قرب اوتوستراد يشبه السكن على جبهة قتال. اخترع الفرنسيون جدراناً

من اسمنت أو زجاج ليفي لتخفيف الأزيز الممزق للأعصاب على الاوتوستيرادات الدائرة حول باريس. و ابتكرت شركة فرنسية أيضاً وسيلة لقياس قيمة الضجيج في السوق: ابتنت عدة بيوت واحد بمساحة واحدة وطراز واحد ويقع البيت الأول على الاوتوستراد مباشرة، الآخرعلى مبعدة 500 متر منهـ الثالث على مسافة 1000 متر والرابع أبعد من ذلك والخامس يقع في منطقة السكون. و لما بيعت البيوت في الأسواق اتضح أن الفرق بين البيت الصامت والبيت الصاخب هو رقم كبير يصل إلي نصف القيمة المادية. للضجيج إذن القدرة على تحويل قيمة الأشياء من الايجاب إلى السلب قدر ما أن للقذائف القدرة على سلب الحياة نفسها. من يسدد فاتورة الضجيج، في الأقل، لهذه لحرب.



نواقيس الكنائس



(10)

شارع الحمرا فقد أصلاً الكثير من حيويته الغابرة. يبدو الآن مثل شوارع المدن المهجورة. المقاهي مغلقة. ثلة من نازحي الجنوب تمشي على استحياء في دروب الغربة هذه. إن لم يكن النازح يشهر هويته بالحيرة البائنة أو الحزن المكتوم فعلى الأقل بلباس الإناث المحافظ، اللباس الأسود الطويل الذي يجمع بين الفستان والعباءة، مثل الأكياس السود.

الحمرا نفسه يشيخ، ثم يجدد يفاعته. دور السينما الأصلية اختفت. أين الايتوال، والبريستول والكومودور؟ ها قد تلاشت جميعاً. لم يبق لنا سوى الكونكورد المتقادم مثل عجوز هرم يصر على الاستمرار.. الأشرفية وحدها احتفظت بجمال الماضي. ثمة سينما أمبير صوفيل، وسينما السوديكو .

المقاهي الشهيرة اختفت أو تختفي.

الدولتشه فيتا على الروشة لا أثر له. فيه شاهدت سحنة ميشيل عفلق الاعجفِ هو وثلة من السياسيين المنفيين. والهورس شو يغادر مستبدلاً بكافيه المودكا، وقبالة الويمبي يحتفي البيروتي الشاب بـ"ستار باكس" وتختفي باختفائه القهوة البيروتية، الوسط أو على الريحة، أمام زحف الاسبريسو الايطالي المتأمرك. أما الويمبي نفسه ففي سبيله إلى الهدم.

أمضي في الحمرا وحيداً. يتوارى كل العاملين معي. سلام ياغي سكرتيرة المكتب تعود كي "تطل" على "الشغل" بعد غياب

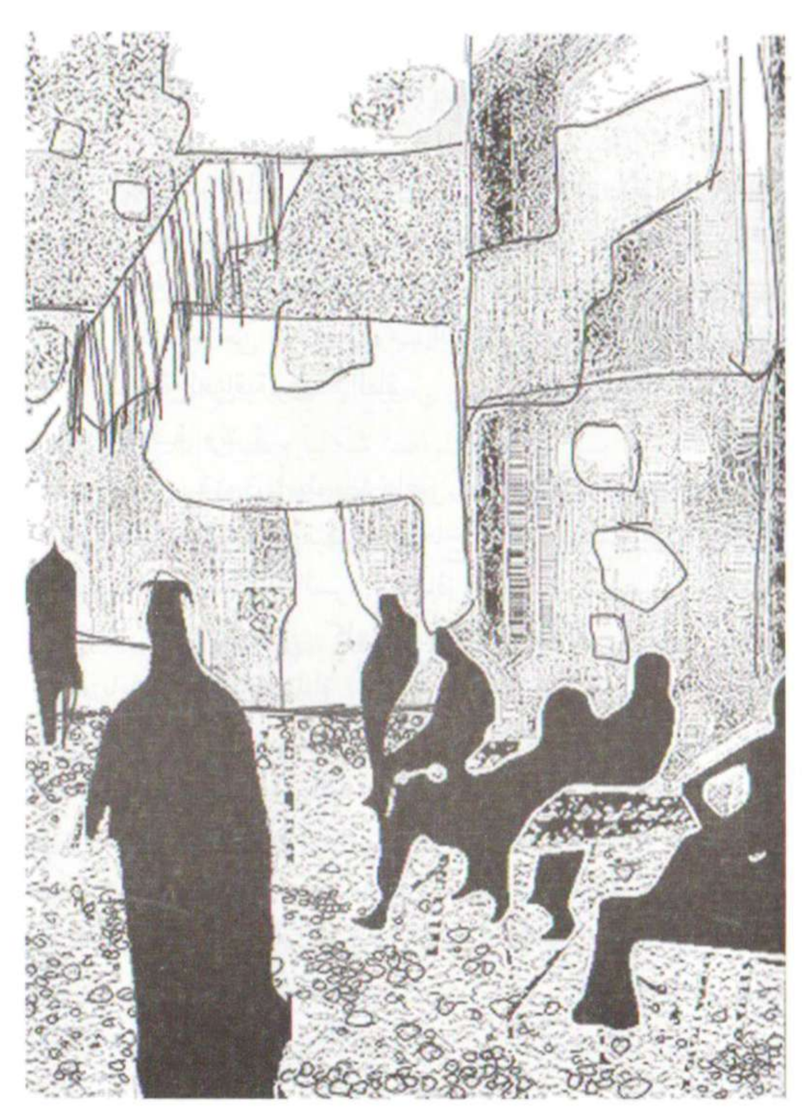
اسبوعين استحياء و تردداً. الباقون فروا إلى سوريا. انظر إلى الطاولات الفارغة، والكومبيوترات المغلقة، ثمة طبقة خفيفة من الغبار تذكرنا بتراكم ساعات الزمان. عين المريسة، المطلة على البحر، تبدو أكثر أماناً من الضاحية. بدت سحنة سلام شاحبة مثل التراب.

ـتبقين ببيروت؟ والكل فلوا!

ـ"افضل الموت مع أهلي". أجابت

في لبنان العائلة أولاً.

بغتة يندلق عليك فراغ مميت في العمل. وحين تخرج إلى العراء تجد فراغاً أعتى. اختفت شبكة معارفي: حازم الأمين لا أثر له. تلفونات وليد خدوري، وفواز طرابلسي، وآخرين، لا ترد. مكالمة فاشلة مع أهدن حيث ينقطع الروائي والاكاديمي رشيد الضعيف عن العالم. محمد أبو سمرا وأنا التقينا مرتين على غداء وجيز كسر ثقل اللامعنى في خواء بيروت. بقي كاتبي الأثير عباس بيضون على مرمى حجر.



شارع وفراغ

(11)

الروتين الوحيد الباقي قرب الحمرا (نزلة السارولا) هو عباس بيضون. يكادِ مكتبه في مبنى جريدة "السفير" أن يكون مأواه، منزلاً وموئلاً وقاعة ضيوف وطاولة كتابة. صار هذا المكتب ملاذي . ألوذ به من موت بيروت الفجائي. نرشف الشاي المعدّ على الطريقة العراقية، فهذا الطقس موروث في العائلة عن جدة عباس النجفية. ونثرثر.

يكتب عباس بيضون بأسلوب خاص. ثمة بناءات خاصة. إنه يلتهم ما حوله من مشاهد ويقنصها بفخاخ الكلام. هذه الملاحظات المشهدية تؤلف سداة السرد المتدفق. وهو سرد وصفي، كاميرا لاقِطة، تريد التفاصيل كلها، محبوكة بأناقة روائي، عباس حكاء بامتياز. لكنِ السداة تتواشج بلحمة خاصة، أثيرية، قوامها ملاحظات فكر وقّاد. ويتداخل الوصف الحسي و/أو الشعوري المباشر بهذا العقل المرتاب المدقق. في نصفه الأول يبدو تدفق عباس الوصفي جديراً بروائي أما تساؤلاته الذهنية فكفيلة بعقل مفكر. هذا هو عباس نصفه مفكر ونصفه شاعر، بالأحرى روائي.

في العادة يقبع أهل القريض في قارورة الشعور بعيداً عن الفكر، مستنكفين عن التثاقف خارج أرومة الشعر. وغالباً ما تعلق عنق الشاعر في عنق قارورة الكلام.

مقالات عباس مهتاجة. تتلمس التفاصيل وتدور حولها وتجسّها في معاينة فيها الكثير من الجرأة. الخروج على عالم القطيع في

أوج الحرب مأثرة صعبة. يبدو عباس ناقداً لكل شيء، محتفظاً بتلك السخرية الشفيفة، لتجاوز آلام الاكتشاف والمكاشفة. آه يا عباس. لا بأس من المجاملة في سطر أو سطرين .
قالت استاذة: عباس يكتب مثلما يحكي. قلت بل يحكي مثلما يكتب. هذا هو : يعيش الكتابة، ويكتب عن المُعاش. الخروج على الاجماع امتياز الكاتب، وقلقه. قلة صغيرة تقبل سفر الخروج هذا، أما الجمهرة فتبقى حبيسة الإجماع.
الانجليزي غير ممتثل بطبعه، وحين لا يجد اعتراضاً على فكرة ما رائجة، تراه يثير ضدها اعتراضاً شكلياً ويقول إنه يفعل ذلك إكراماً للنقاش: for the sake of argument
ألحوار الفكري بقرة الانجليز المقدسة: هي عندنا إما ذبيحة أو فطيسة.
أعترف أن لبنان حمل إلي، كل لحظة، نقاشاً متعدد الأبعاد، رغم ردود الأفعال النابية هنا وهناك. مثال ذلك الردود القاسية على مقالة منى فياض (جريدة النهار) الواضحة والجريئة عن معنى أن تكون شيعية. فهي تحتفي بفرديتها اكاديمية وكاتبة، أما رهط الخائفين من ترك الحبل السري للجماعة الأكبر، حزبا أو طائفة، فلهم رأي آخر. تلقت سيلاً من "الردود"، بالأحرى اللسعات، واللدغات، والعض بالأنياب. خلاصة الردود هي اتهامات: اتهام بالتجرؤ على الخروج عن جادة الإجماع. فيا للهول!
امتثال الكاتب انتحاره. امتثال الكتابة نهاية المعنى. أحد الردود على مقالة النهار بقلم كاتب يحمل لقب: شري، قلت لمنى مازحاً: أين راؤه الناقصة!



عباس بيضون ـ كاسر الاجماع

(12)

أنقذني محمد أبو سمرا من موات بيروت، أخذني إلى مطعم خاص، أصغر من بوتيك، في شارع الجميزة، لتناول طبق من البامياء. اسم المطعم "الطبخة" أو بالفرنجية: "لا تابخا". بالمقابل أخذته إلى الروشة، في مطعم أصغر من بوتيك، يدعى "الكرم" قبالة أوتيل السي روك. كان أول مطعم آكل فيه ببيروت قبل ثلاثة عقود ونصف.

ابو سمرا جنس خاص من الكتاب . يجمع الرواية والصحافة بالبحث الميداني. في أول لقاء تعارف بيننا عام 2000، أثناء زيارة لكردستان العراق، كان بادي الهدوء، نائياً بأفكاره وتأملاته عن ضجيج السفر والوفود المسافرة. بعد عودتنا قرأت مقالته عن كردستان. فيها حنكة سرد روائي، وبحث ميداني عن التفاصيل. واستكمل ابو سمرا عمله الروائي بعمل عن المدن.

يظن بعض الروائيين أن الكتابة تتفجر من الرأس، من المخيلة، دونما عناء، ودونما حاجة إلى بحث وتنقيب وإعمال فكر. ومحمد ابو سمرا نقيض ذلك تماماً. وهو يُتابع تقاليد أسلافه: كان ديكنز يطارد المارة، ويحاول أن يتخيل مهنهم ومنحدرهم. مثلما كان ديستويفسكي يقوم بالمران ذاته. مرة تابع سير محاكمة قاتل شاب فتك بسمسارة عجوز من دون أن يسرق منها نكلة. صار ذلك أساس رواية "الجريمة والعقاب". أما همنغواي فكانت الحروب والسفر زاده للبحث والتقصي، من هنا قبوله بعمل مراسل

صحفي أثناء الحرب، ومن هنا أيضاً سرّ جمله القصيرة، المكثفة، بلا أورام، بلا شحوم، ومن حرارة "وداع للسلاح"، أو "وتشرق الشمس ثانية" أو "الشيخ والبحر وثلوج كليمنجارو".

ولأبي سمرا في السياسة صراحة خاصة، ما يسميه اللبنانيون "دغري". تبادلنا ما نكنه من بغضاء للخطاب السياسي الفارغ، وافرغنا ما في جعبتنا من اعتراض على العنف. كان مذاق الباميا لذيذاً. والباميا، عند العراقي، تشبه التبولة والمشاوي عند اللبناني: إنها جزء من موائد النشيد الوطني. ضحكنا في ذلك الجو المكئب.

وحكينا.



محمد ابي سمرا كاسر النمطية

(13)

مطعم "الكَرَم" يقبع ها هنا منذ ربع قرن، أو يزيد، على الناصية المقابلة لفندق "سي روك"، المجدد، الفخم. كان له، قبل ربع قرن، اسم آخر. السي روك (صخرة البحر) هو الاسم الانجليزي للروشة (الصخرة) الفرنسية.

مطعم "الكرم" انقذني من وحشة الحرب. ففي مدينة الأشباح التي صارتها بيروت كان هو ملاذي مرات. يطالعني وجه مروان، النادل الدرزي الشهم، ببشرته الوردية، وشعره الأشيب القصير، وسرعة حركته رغم ميله إلى شيء من البدانة، أو الامتلاء. يسرع إليّ ببشاشته المعهودة، محيطا أياي بكل ألقاب التبجيل. أكرع قنينة بيرة صغيرة، المازة (الماسة)، وهي من خيرة ما أبدعه لبنان. هي في الأصل تشيكية (على ما أظن). يخف هجير تموز. أقضم حبات الفستق على مهل، لا هدف لي سوى تمضية الوقت. أحسب كم ثانية تقتضيها حبة فستق كاملة بعد طحنها ومضغها ثم بلعها كاملة. نحو عشرين ثانية. مرة أخرى أجرب: 28 ثانية، كل دقيقة بثلاث حبات. قضمت عشرة دقائق!.

ثمة بناية جوار فندق "السي روك" مهجورة، بلهاء، تفوح منها رائحة العفن. شرفاتها منخورة، زجاج نوافذها محطم. حالت ألوانها وبهتت. دكاكين الطابق الأرضي فيها صدأت سترها من الحديد المشبك. البناية، قال مروان، يملكها مليونير شيعي مغترب، لا هو يبيع و لا هو يرمم ما تحول اليوم إلى بناية تتعفن و

تتآكل، متحولة إلى زريبة. مهلا! ثمة حياة تدبّ في بناية الأشباح. لمحت جمهرة من أجساد نسوة و صبايا ملفوفات بالأسود. اقتضى الأمر هنيهة كي أدرك اللوحة الجديدة: نساء في ملابس اسلامية أو تقليدية، طويلة، سوداء، ورؤوسهن مغطاة بعصابات سود. هذا لباس قرى الجنوب الشيعي عموماً.

هذا هو الجنوب المهاجر، كن يلصقن ورق جرائد على ما بقي من زجاج النوافذ المخلعة، وسد الدرفات بقطع قماش، طلباً للستر.

قال مروان مكررا المعلومة على عادته: "صاحب البناية شيعي، ملياردير لا يريد أن يعمر البناية، تسوالها كم مليون".

يبدو أنه سمح، من مغتربه، للمهاجرين بدخولها. بعد أسبوع تحولت البناية المهجورة إلى مدخل مسرح عمومي، مكتظ بنساء يتشحن بالسواد.

كذلك حال البدرون، أو الطابق السفلي في بنايتنا بمار تقلا، الحازمية. عمرته عوائل مهاجرة رعاها جاري طبيب الأسنان، د.حيدر قبيسي. بلطفه المميز عبأ الدعم من بعض ساكني البناية، بين بطانية، أو مروحة في ذلك القيظ اللاهب المتركز في قاع البناية، حيث لا منفذ لهواء ولا مسرب للابتراد. صرنا نسمع اللاجئين: كركرات الاطفال، الإناث وهن يوشوشن لبعضهن شيئاً من الأسرار، "قشبة" كما يقول العراقيون، أو الاغتياب، بالفصحى. كانت الأصوات تتناهى الينا من بئر البناية، أو من بين السلالم، لكأنها مسرحية سرية في قاعة سفلية، لا تصلنا سوى بعض مشاهدها الخفية.

حين يصعدون، (وأنا اتكلم عنهم بصيغة الجمع) من قاع البناية، إلى أول طابق يحوي مصعدا، فإنهم يفعلون ذلك بخطى وئيدة، مختلسة، خائفين مترددين، خشية أن يراهم سكان البناية. لكأن الهجرة عار. كانوا يشعرون بالخجل لعوزهم، واضطرارهم. ثمة من يشعر بأنه بات "عالة" على الغير. الكرامة الجريحة أثمن ما في هذه المخلوقات. يحاول الزعماء ثلم هذا الإحساس الانساني وتشويهه بشعارات سياسية، مبنىً ومعنىً. فما من شعار يساوي هذا الألم، أو يفتديه.

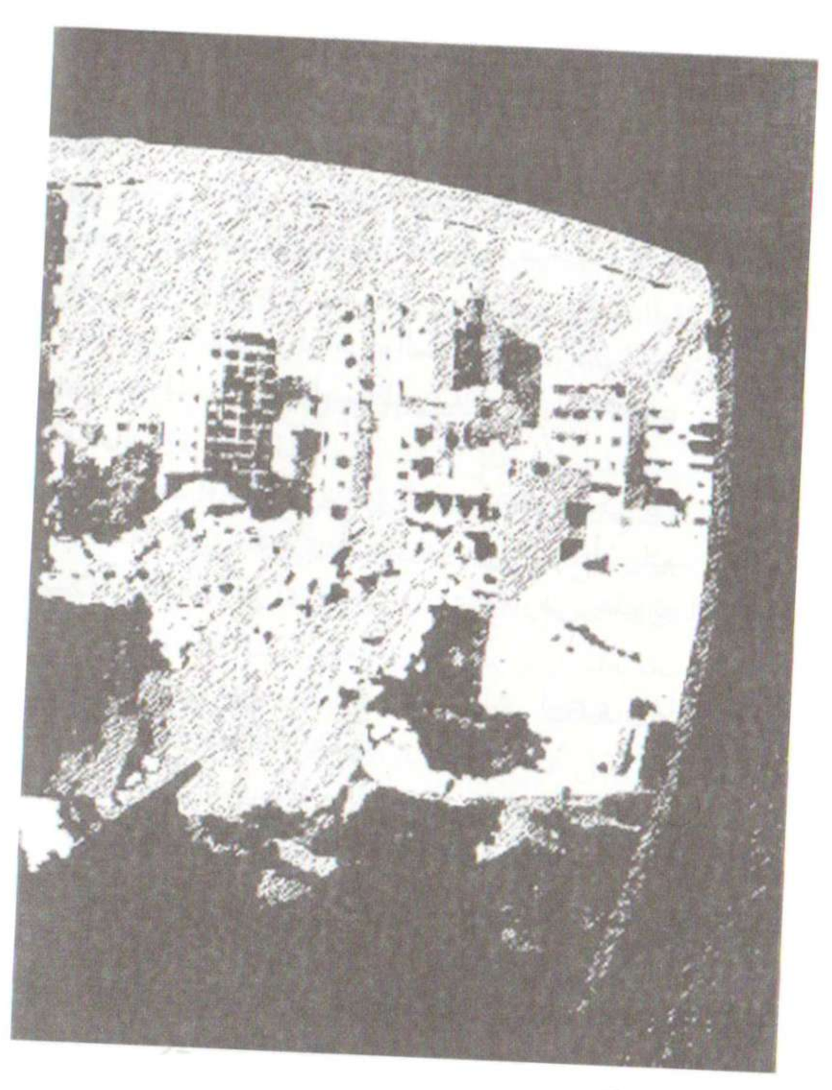


قبالة مطعم الكرم

(14)

قبل عقد ونيف لم يكن للبريد الالكتروني من وجود بعد. اليوم صار نافذتي إلى العالم. مع انقطاع الكهرباء المتكرر، المستديم، بل خطر انقطاعه الدائم، اشتريت بطاريات عدة للكومبيوتر تكفي لتشغيل 4 ـ 5 ساعات يومياً.
على الطريق الالكتروني دلفت إلى مواقع الدمار في بيروت، المتسعة أبداً. الجسور مثل جثث متساقطة في سوح الحرب. برنامج Google Earth يتيح لك التفرج على المدن من عل. الضاحية بدت مثل فم اقتلعت منه الأسنان.
تلقيت رسالة تحمل بياناً سياسياً يشجب العدوان، أضفت توقيعي اليه، بعد أن رأيت اسماء أعرفها بينها أصدقاء قريبون، أو شخصيات عالمية مثل نعوم تشومسكي. قبل فترة زار بيروت والتقيناه في حفل عشاء ببيت الصديق فواز طرابلسي. كعادته بدا تشومسكي هادئاً، رقيقاً منصتاً. افصحت له عما كنت قد كتبته من زمان: يحب العرب نقد تشومسكي للحكومة الأميركية، ويتوهم بعضهم أن في ذلك دفاعاً عن حكوماتنا البائسة أو أصولياتنا الأكثر بؤساً. رفع تشومسكي حاجبيه استغراباً.
أوضحنا له أننا نريد لأنفسنا وللمثقفين العرب أن يحذوا حذو تشومسكي في نقد حكوماتهم هم. فنقد العدو لا يكلف شيئاً، بالأحرى هو مفيد ومثمر على الصعيد الشخصي. فبمجرد أن تطلق صيحة استنكار على أميركا وإسرائيل، وهما تستحقان أكثر

من ذلك، حتى تشعر أنك ارتقيت قمة الرضى الأخلاقي عن النفس، والرضى السياسي عن الذات. باختصار هو أداة نرجسية. ينبغي أن يكتمل ذلك بنقد "نا" لحالنا نحن.
حين يسقط قتلانا برصاص العدو فهم ضحايا وشهداء، وحين يسقطون برصاص حكوماتنا فلا هم ضحايا ولا هم شهداء.
واتذكر عبارة غاندي:
" سيان عند الموتى واليتامى والمشردين إن كان الدمار قد حاق بهم باسم الشمولية أم باسم الليبرالية". و لنا أن نضيف " أو باسم الأمة والزعيم".
الصمت يلف أولاد الموتى. بل ثمة من يتطوع لكي يقول: الذنب ذنب المعترضين...فحوى ذلك أن على المرء أن يلتمس طريق السلامة بالابتعاد عن أي نشاط أو رأي معارض. هذه نصائح نسل العبيد أولاء.
أضفت توقيعي إلى بيان الاحتجاج الذي احتوى إشارة تقدير لحزب الله، ما كنت لارتضيها.
اقترحت، بعد التوقيع، رسالة أخرى تدعو إلى العمل: بيروت بلا وقود. وسفينة الوقود تقف قبالة السواحل بانتظار "ضمانات" اسرائيلية.



Google earth

الدمار في عين غوغل

(15)

ملكت على سفينة الوقود وما عليها خيالي. أبلغني الاقتصادي العراقي وليد خدوري، من مكتبه في جريدة الحياة، أن الوقود في بيروت لن يكفي لأكثر من اسبوع. في النهار ذاته كان عليّ أن أوصل أباً وابنه اليافع إلى مستشفى قريب لعمل غسيل الكلى. اعتذرت الممرضة كما اعتذر الطبيب لقلة الوقود، عن غسيل الكلي. درنا على مستشفيات عدة حتى حصلنا على منقذ. رأيت سحنة الوالد: شفتان متيبستان، وشحوب فزع، أما الصمت فكان أكثر بلاغة من الإفصاح.

حكى لي أحد الأطباء أن ثمة ثمانية وعشرين ألف لبناني ولبنانية مهددون بالموت إن لم يصل الوقود إلى المستشفيات ، فهم، مثل الصبي، بحاجة إلى غسيل كلي، أو عناية مشددة، أو تنفس اصطناعي. ثمة 28 ألف حكم بالإعدام معلقة على سفينة الوقود في عرض البحر.

كتبت رسالة بهذا المعنى إلى أكثر من 400 أكاديمي ومركز أبحاث وجامعة، طالبا، بدل الشجب والزعيق، اكتراء زورق لمرافقة سفينة الوقود، على طريق جماعة السلام الأخضر إلى شواطئ لبنان ومرافئه. لدهشتي تلقيت عشرات الاستجابات. أجمل تلك الاستجابات ما كتبه المؤرخ خوان كول، المقيم في أميركا، من توصية إلى زملائه لأخذ الرسالة بجدية أكبر، وقام هو بتوزيعها على نطاق واسع، حصد آلاف المشاركين من الوسط الأكاديمي وسواه.(ما تزال الرسالة على الموقع الالكتروني للبروفسور خوان كول: Juan Cole)



بحثاً عن الوقود

(16)

الوقود يكفي لبضعة أيام.. علينا الاستعداد للعودة إلى ما قبل العصر الصناعي، إلى حضارة الجياد إن بقي منها ثفالة .فتشت عن حذاء رياضي قديم تحسباً للمشي مسافات طويلة. الخبز غاب عن مار تقلاهذا اليوم. بلا خبز بلا بنزين سيارات. أجرب شيئا من حل:

الساعة 8 صباحاً: أغادر مارتقلا بسيارتي نزولاً على الاوتوستراد شديد الانحدار الموصل من بعبدا إلى الاشرفية أو طريق البحر. أترك السيارة تنحدر، بمغير سرعة محايد، وتتسارع بزخمها الذاتي إلى سرعة 110 كم بالساعة، وأصل من نزلة قصر بعبدا إلى طلعة مشفى أوتيل ديو بكبستين أو ثلاث كبسات بنزين. تعلمت اقتصاد الحرب هذا من الشوفير البيروتي. دامت " تنكة" البنزين ستة أيام ونصف. قلت هذا لشوفير سرفيس في اليوم السابع من التعبئة، فضحك هازئاً. فهمت بعد إلحاح مغزى سخريته. فما توهمته، في خيلاء، تدبيراً حكيماً بدا له اعترافاً بواقع عجزي عن تدبير تنكات بنزين رغم أني كما بدوت له لست من "المعّترين"، ثم أي اقتصاد في البنزين إذا بقي المحرك دائراً! لكن الفرامات لا تعمل عندئذ، قلت ذلك عند آخر متراس في الدفاع عن معرفة الميكانيك. "تشغّل المحرك قبل دعسة الفرام بلحظة" قال بثقة حكيم صيني. من يستطيع أن يبز الشوفير(سائق التكسي) البيروتي؟ إنه استاذ في السياسة والكياسة والميكانيك والسهر وبالطبع "التفنيص". هو أيضاً عبقري في فن ابتزاز الطرق

وأسطه في ملء أصغر فراغات الوقوف. ومن عساه يزمّر مثله، أو يلتقط أدنى احتمال في الحصول على زبون، والويل لمن يخيّب أمله في أن يكون الزبون المنتظر. من عساه يباري شوفير بيروت في دس سيارته في أصغر فسحة بين سيارتين، أو على رصيف أو بين حاويتي أزبال. ما من مستثمر للفراغ مثله. وبهذه البراعة خلق ثقافة بيروتية بل لبنانية خاصة في ظل مشكلة قلة كراجات وأماكن الوقوف. ثمة ميل مشابه في القاهرة ودمشق وبغداد الا أن فوضى بيروت منظمة تخالطها كياسة مدروسة: "بدي عذبك"! هذا هو الاعتذار اللبناني: بدِي اعذبك!. لو قلت لعراقي "اريد ان اعذبك !" لرد عليك تلقائياً "ألا يكفيني التعذيب الذي اذوق!" ولن يحسبها كياسة أو استئذاناً.

اعادتني الحرب إلى هدوء لندن. اختفاء الزمورات (ام الزمامير). سكون تام في الشوارع. لم أتيقن من انتهاء الحرب إلا بعد أن عاد الزمور يصرخ احتجاجاً، أو عجلة أو اتهاماً، أو تنبيهاً لعابر سبيل، أو لفت نظر زبون السرفيس. بدا الزمور الذي نسميه نحن العراقيين باسمه الانكليزي "هورين"، إعلاناً للبهجة أكثر منه عودة إلى مدينة الضجيج.



حسابات شوفير

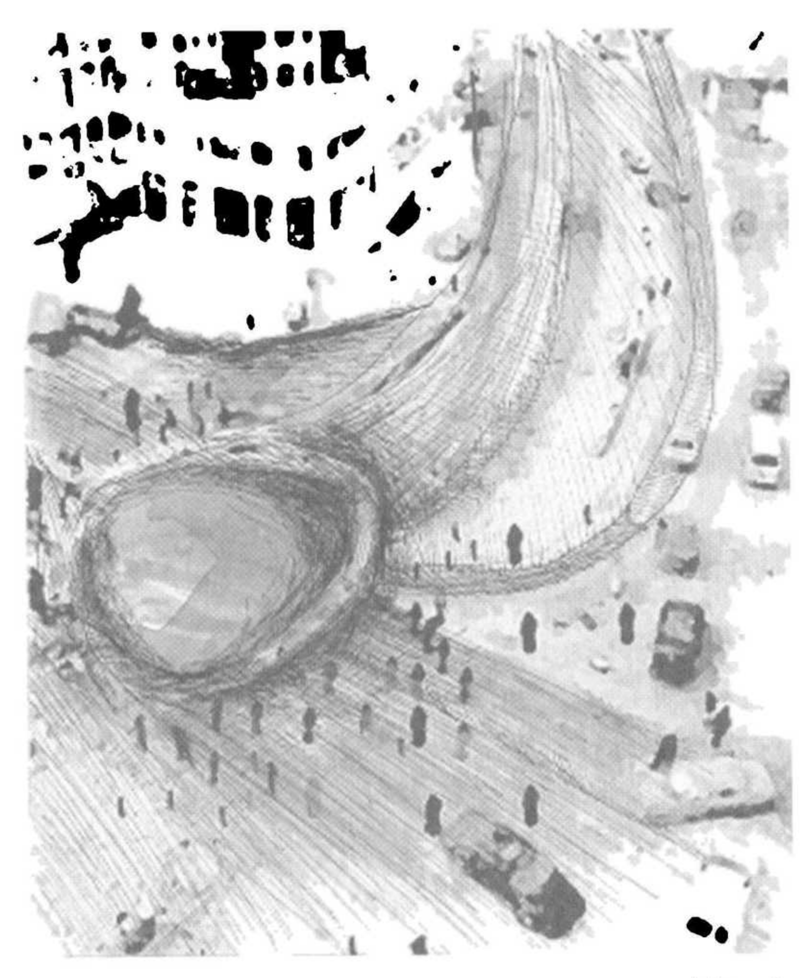
(17)

بغتة حصل ما يشبه التحليق: كأن الريح تحتي، وعلى عكس المتنبي، أخذت: تقلبني يمينا أو شمالا. لعلها كانت ثانية أو ثانيتين، لكن عجلات السيارة لم تكن تلامس الأرض. أيقنت بعدها أن صاروخا انقض على تقاطع طرق قريب أو جسرمجاور وأن موجة الانفجار هزت السيارة التي اقودها هزاً و ارتفعت قليلا عن اسفلت الشارع.. رأيت الدخان يتصاعد على ميسرتي. في اليوم التالي وجدت شارعاً يشبه سطح القمر. لم يعد المرور ممكناً. احشاء الشارع انبجست مثل زهرة من قضبان حديد وكتل اسمنت. بوسع الطائرة المغيرة أن تشل حياتك و تقطع عليك كل السبل. لم يعد الممر الواصل إلى كنيسة مار مخايل سالكاً.

رغم أن الطائرات الحديثة مزودة بأدق أجهزة التصوير، وأدق ليزرات التصويب، يبقى هامش خفي خاضعاً لإرادة المحلق، ويتوقف عليه وحده قرار حياتنا نحن، حياة "النمل البشري" الذي يدب عارياً تحته، أو موته. وتبقى المصائر البشرية، شقاء السنين، وبراعم الحب والحياة الفتية، تحت رحمة "الطيارجي" (كما يقول الجيل الأقدم من اللبنانيين).

القرار يدور في المسافة الفاصلة بين خلايا دماغه، وبؤبؤ عينه، وإبهامه. كبسة على زر ويتلاشى اللحم البشري في اشباح اللهب نثاراً. لعل الطيار ينتشي. وفي انتشائه المرجح نعثر على جرثومة

القومية الجامحة التي تنقلب في الحرب إلى عنصرية خالصة. لست في وارد إحالة هذه القسوة اللامتناهية ازاء بيوت مدنية عزلاء، إلى الايديولوجيا وحدها. ثمة مؤسسة لم يُدرس دورها جيداً: أعني الجيش. مرة أثار انتباهي باحث يساري اسرائيلي، إلى أن الجيش، في دولة تعيش على الخطر الخارجي، يكتسب حقوقاً معلنة وخفية، حتى يصل إلى مرتبة الأقنوم المقدس، حتى في أشد الديموقراطيات رسوخاً. والجيش الاسرائيلي هو القاعدة وليس الاستثناء، فهو الذي يضع اللمسات الأخيرة (الحاسمة) على السياسة الخارجية، وعلى الميزانية، وعلى... والويل للسياسي المدني الذي يجنح عن المسار. أغلب رؤساء وزراء إسرائيل جنرالات: رابين، باراك، شارون. والمدنيون منهم يبدون مثل خيال المآته.

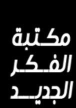


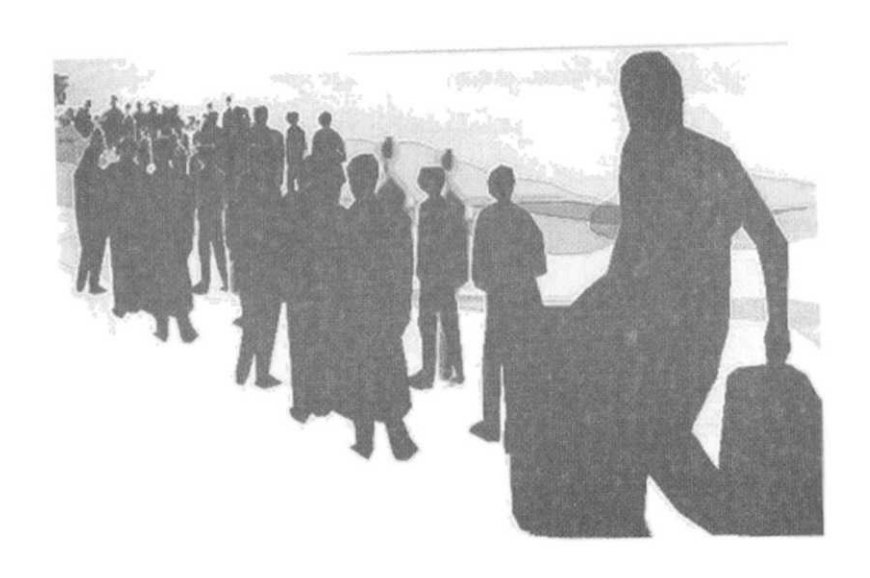
مار مخايل

(18)

كان علينا ان نوصل فاطمة إلى البر الثاني: سوريا. حملنا جمال إلى الحدود:
أكداس بشرية. طابور من الأجساد المنهكة. ألمان شقر يسحبون حقائب الترولي على الطريق الإسفلتي الضيق المنقوش بالحفر، في مسير الجلجلة هذا نحو مركز الحدود اللبناني السوري، العبّودية، القريب من طرابلس.
نساء بسراويل جينز تكشف عن الانحناءات والتكورات بسخاء. وصبايا بفساتين عريضة هفهافة طويلة، وغطاء رأس اسلامي. موسرون بآخر صيحات الموضة، ومعوزون يحملون متاع العمر في أكياس نايلون سوداء، مما يستخدم في العادة للأزبال. عوائل صغيرة مهاجرة. رب الأسرة، شاب، بسروال رث، ونعال مطاطي، وقميص داكن اللون، مثل بشرته التي دبغتها الشمس. أما الزوجة ـ الأم ـ فتمشي وراءه، برداء طويل أسود، وغطاء رأس اسود، يقف في تضاد صارخ مع بشرتها الحليبية، ووجهها السمح. هما يحملان كل متاع العمر؛ هي تحمل طفلها الرضيع وقنينة حليبه، وصرة ثيابه، وهو يحمل كيس ملابس أسود ومروحة طويلة الساق. من ينسى المراوح في هذا الهجير وهذه الهجرة . يوم الحشر، يوم العبور.
جل العائدين فلاحون سوريون نزحوا عن سوق العمل البيروتي. يجني المياوم هنا عشرة دولارات في نهار العمل، فيكسب ألف ليرة سورية يومياً أي خمسة أضعاف راتب الموظف، الذي ينهب

دولته ووطنه دون أن يرف له جفن. هكذا يُعاد توزيع الدخل.
أكثر من 60 الفً عبروا نقطة الحدود في هذا الحشر قضينا من الساعة الخامسة عصراً لنعبر البرزج في الثالثة فجراً ، كل هذا من أجل مرور فاطمة، كي تعود إلى لندن.





النزوح

(19)

يحارب المقاتل باسم القومية والوطنية، على جبهتين: جبهة لبنان في معركة داخلية، وضد اسرائيل في معركة خارجية. وتتداخل الأثنتان تداخلاً مكينًا.

في قارة المنشأ، أوروبا ، فقدت الوطنية والقومية الكثير من سحرهما وقدرتهما التعبوية. وحين تنطق بهما في شيء من الجد هناك، فأنك تثير الهزء، بل الشفقة. هنا لا تزال الكلمتان في أتم عافية، مسربلتان بالوهم المقدس. اخترع الانسان اللغة ووقع فريسة اختراعه، أسيراً لسحر البيان. في البدء كانت الكلمة؟ في البدء كان الاغتذاء؟ في البدء كان الفتك؟ في البدء كان التناسل؟

(20)

الوطنية والقومية كلمتان عجيبتان، تستبطنان ظاهرة واحدة: الأولى تفصح عن الجماعة (القوم، الأمة nation)، والثانية عن المكان (الاقليم، الأرض، الوطن homeland). يا لهذه الأوطان، المقاسة بالسنتيمترات المربعة، والمودعة في خرائط رسمية في أدراج الأمم المتحدة.

عجزت اللغة عن ابتكار كلمة واحدة تجمع الوطنية بالقومية، على

غرار كلمة (الزمكان) الجامعة للزمان والمكان. في الانكليزية (واللغات الأوروبية عموماً) ثمة الازدواجية نفسها: الوطنية -pa tritoism مشتقة من كلمة (Patri)، الأب. ورغم الطابع القرابي للإصطلاح فهو ترميز للأرض، أرض "الآباء والأجداد". من قال إن الصين وحدها تعبد الأسلاف!

أما كلمة الامة (nation) فقد ظلت حتى أواخر القرن الثامن عشر تعني جالية غرباء، حسب المعاجم التي دققها المؤرخ اريك هوبزباوم. أما في العربية فإن الأمة لم تكن تعني سوى قبيلة، وهي في الأصل كلمة سومرية. الغريب أن الأصل السومري يعني أيضاً "قبيلة" أما في العربية فصارت تعني جماعة دينية. قبائل الغير، أمم الآخرين، وجاليات الأمس هي أمم اليوم.

لعل الحروب التي خيضت تحت رايات الأوطان والقوميات أكثر من أن تحصى.. حسبنا الاشارة إلى 20 مليون قتيل في الحرب العالمية الاولى، و50 مليون قتيل في الثانية. في هيروشيما وحدها ثمة عشرون ألف قتيل في ثوان. خلد هذه الواقعة الشاعر العراقي بلند الحيدري في قصيدة بعنوان: عشرون ألف قتيل خبر عتيق! (قرأتها في أحد أعداد مجلة الآداب أواسط الستينات من القرن الماضي) . هاتان حربا قوميات ووطنيات بامتياز. ما جدوى التأمل في هاتين الكلمتين في سياق حرب لبنان الجديدة أو حروبنا المقبلة؟ نحن نعجب بهذه الحروب ولا نلتفت إلى الأوطان التي تحررت بلا حروب: الهند مثلاً. في يفاعتي كنت أعشق هاتين الكلمتين. في كهولتي صرت احترز منهما، أو قل أخشى من التلاعب بهما. إليك بعض مخاوفي.

تغتذي النزعة القومية على العدو الخارجي، مثلما تربأ بأي شقاق داخلي. هذان هما وجهاها. وان لم يكن ثمة عدو خارجي فينبغي اختراعه. كان الروس، في ظل الاشتراكية، يرون أميركا خطراً على "الوطن"، بينما كانت النخبة تحاول طلاء الوطنية بدهان آخر: الوطنية الاشتراكية. لا ريب ان ثمة وطنية ليبرالية، ووطنية قومية، ووطنية اسلامية، كناية عن تنوع المشارب الفكرية في المجتمعات. الوطنية المستبدة وحدها تربأ بالتنوع، وتطالب، على غرار نظم الحزب الواحد، بوحدة جوانية صوانية. وأي مساس بها هو برأيها انتهاك فاضح للحرمات.

تزدهر الوطنية (أو القومية) بوجود الخطر الخارجي، فان خفَّ أو غاب، انتجته في الوهم، مثل حب نزار قباني: إن لم نجده على الأرض، لاخترعناه. ونحاول أحياناً الافلات من اسئلة الإصلاح، والتطوير، أو التعقيد، فتقرع طبول الحرب. فكل الأسئلة مؤجل، كل الضرورات تُستبعد، إلا ضرورة الحرب. أكاد انفجر ضحكاً وأنا أسمع شمعون بيريز يصف المعارك في جنوب لبنان، على غرار باعة بطاقات اليانصيب، بأنها "حرب حياة أو موت".

الوطنية والقومية اكتسبتا، رغم تقارب الدلالة، ظلالاً متباينة. وهذا التفارق صنعته نظم المعرفة السياسية، مثلما صنعه الواقع.

فالمنظرون العرب، منذ أواخر القرن التاسع عشر، يلهجون بالوحدة القومية العربية، حتى بات مفهوم القومية عروبياً صرفاً. أما الكيانات السياسية العديدة التي قامت على انقاض الدولة العثمانية، فقد باتت مصالحها وآمالها تكتسي طابعاً "وطنياً" (أي قطرياً حسب المنطوق الايديولوجي) . صار ما هو عراقي، أو

سوري، أو لبناني، وطنياً، وما هو فوق هذه الكيانات، قومياً. هذا التباين مجازي، من حيث الدلالات الأولية للكلمتين، لكن الاختلاف صار وجودياً من حيث الدلالات الراهنة. أعني أن التباين بين الإثنين ليس لفظيا محضا بل بات اختلاف مصالح ورؤى. في أحيان يختزل الوضع ببساطة إلى. القومي ضد القطرى.
وأجد في معسكر الخصم افتراقاً مماثلا. فالحركة الصهيونية التي ولدت في أوروبا الشرقية أواخر القرن التاسع عشر، كانت تعبيراً عن نزعة قومية علمانية، شاملة، تتخذ من الدين معلماً ثقافياً مميزاً للجماعة القومية، ثم من اللغة العبرية — وهي لغة التراتيل الدينية القديمة، شأن اللاتينية في الكنيسة الكاثوليكية، معلماً أثنياً للجماعة القومية.
في معنى من المعاني كانت الصهيونية، حسب تعبير أول منظر لها ليو بينسكر ترى أن الذات الجماعية للأمة لن تجد مأمناً لها إلا في إطار دولة خاصة بها. وبات إنشاء دولة لليهود ـ أي دولة ـ المطلب الأساس لدى بنسكر (في أفريقيا أو في أميركا... أو أي مكان). كان بينسكر يرى أن من لا دولة له لا وجود له. لكن ثلاث استراتيجيات نشأت: الحل الليبرالي بالتوجه للغرب أو مناصرة بناء أوطان ليبرالية، الحل اليساري (المشاركة في الثورة الاستراكية) أوالحل القومي: إنشاء وطن خاص. لم ينتصر هذا الاتجاه الأخير في الغرب الا بعد قضية دريفوس (فرنساـ التي تبناها الروائي اناتول فرانس) و بعد صعود النازية (القومية العنصرية).
بعد ولادة اسرائيل عام 1948 وقع افتراق بين الصهيونية، القومية الجامعة لكل اليهود، والوطنية الاسرائيلية، أي قومية الجماعة

القاطنة داخل الدولة العبرية. وباتت هذه الأخيرة مرتبطة برقعة اقليمية محددة، ذات مصالح جيوسياسية محددة. ورغم وجود تواشج بين القومية اليهودية الشاملة (الصهيونية) والوطنية الاسرائيلية، فإن الافتراق أو التمايز بين الاثنتين، وارد. الصهيونية دفاع عن اليهودي ضد اللاسامية في إطار كوني، والوطنية الاسرائيلية دفاع عن إقليم محدد. ولعلنا في حاجة إلى المزيد من التأمل لفهم هذه الظاهرة بدرجة أعمق.

في عالمنا العربي، شهدت النزعات القومية ثلاثة تلاوين: عربية عامة (قومية) ومحلية أي وطنية. وأخيراً ثمة قومية اسلامية سبقت العروبة ثم طاردتها لتسعى إلى الحلول محلها بعد نكسة حزيران 1967 ورحيل جمال عبد الناصر. واليوم تتعايش هذه الاشكال الثلاثة، بل تتداخل، في البلد الواحد، وأحيانا في التنظيم الواحد.



القومية والوطنية والحرب

(21)

نلاحظ في لبنان هذه الأبعاد الثلاثة. فمثلا أن توترات الإصلاح، والانتقال من الحرب الأهلية إلى التطور السلمي في لبنان، اكتست شكل وطنية لبنانية حيال الآخرين المتعاملين مع لبنان باسم المصالح القومية العربية. لكن التحرك المعاكس يقوم تحت راية النزعة القومية العربية والاسلامية، حيال اسرائيل والغرب، وباسم التحرير. وحين اخترقت حدود اسرائيل باسم تحرير الأسرى، وتحرير مزارع شبعا، ردّ تيار الدولة باسم الوطنية اللبنانية، وباسم الحقوق الدستورية: حق الدولة في احتكار قرار الحرب والسلم. ولما كان المحارب جزءا من الدولة (ممثلا في البرلمان والحكومة) فإن الوضع بات كاريكاتورياً: الجزء الأكبر من الحكومة يشتكي من الجزء الأصغر، لاستيلاء هذا الأخير علي احتكار وسائل العنف!

والأهداف المعلنة مشروعة: تحرير الأسرى، واستعادة الأرض. المشكلة تتعلق بالوسائل (حربية أم دبلوماسية؟) وبالتوقيت (الآن أم العام القادم، قبل الاصلاح أم بعده؟)

ما أن بدأ الدّك الاسرائيلي الهمجي بالمقاييس كلها، حتى بات الغضب اللبناني عارماً شاملا، وخصوصا بعد قصف قانا وتدمير جسور بيروت ـ طرابلس، وقوارب صيد الأوزاعي. ونشأ جو مشحون راح فيه السياسيون يتسابقون، ليس على انتقاد وسيلة الحرب، بل على شجب العدوان، ليس على نقد المحارب بل

ازجاء الشكر له. اضطر دعاة الدولة والإصلاح إلى القبول بقواعد اللعبة الجديدة. في بدء الحرب كانت موتيفات الوطنية اللبنانية تستخدم ضد منطق شن الحرب. بعد انفلات الجموح الاسرائيلي باتت رموز الوطنية اللبنانية تقف مع منطق الحرب. لم يتردد المحارب عن تجييرها لاختراق جبهة الخصوم.

لم يعد المحارب يتحدث عن تحرير الأسرى وشبعا بل عن الدفاع عن لبنان. انتقلنا من القومي إلى المحلي.

خرائب بلا عنوان

(22)

الحديث عن الانتصار يذكّرني بالخطاب العربي. الانتصار، في تقديري، هو تحقيق الأهداف المعلنة قبل النزاع لا بعده. والهدف المعلن هو الأسرى والمزارع، وليس تأخير دخول القوات المعادية يوماً أو شهراً.

أتذكر حربي العراق، بلدي، مع إيران والكويت. قبل حرب إيران ضمت قائمة المطالب الرسمية: استرجاع شط العرب، جزر طمب الكبرى، والصغرى، ولربما تحرير عربستان، و... بعد الحرب اختزلت المطالب إلى وقف اطلاق النار وتبادل الأسرى، والعودة إلى الحدود الدولية السابقة على النزاع. وخرجنا من الحرب منتصرين بربع مليون قتيل وقرابة 400 مليار دولار بذلت على الجهد الحربي.

في حرب الكويت 1990ـ1991، كان الهدف المعلن قبل النزاع، ضم الإمارة إلى العراق، وخرج العراق منتصرا لأن الحلفاء لم يتمكنوا من اسقاط الحكم، علماً أن هدف الحكم من الحرب لم يكن الحفاظ على وجوده (إذ لم يكن مهددا من أحد) بل الحفاظ على نفسه بشروط مالية أفضل (بعد نهب كنوز سليمان الكويتية). وبعد الحرب انتهى إلى الحفاظ على نفسه بشروط مالية اسوأ من قبل. كانت تلك نهاية الدولة.

أخاف كلمتي النصر والهزيمة، أخاف منهما منذ حزيران 1967. وادعو العرب إلى الحذر منهما. فهما تنتميان إلى بازار الإعلان.

وتذكّرني الكلمتان بباعة البطيخ الأحمر "عالسكين"، حتى لو كان ابيض سمج المذاق، أو حتى عفناً. انقذونا من خرافة الهزائم والانتصارات فهي جزء من عبادة صنم العنف، أكبر الأوثان المعاصرة. قرأت كتابا عن حرب الخليج الثانية (حرب الكويت). تأملت العنوان بالانكليزية، وترجمته: "ظفر بلا انتصار" Victory without Triumph! والمغزى واضح. رغم ان العراق هزم في حرب الكويت، الا أنه خرج ظافرا. هذه رؤية واحد من سادة الديماغوجيا العربية. الواقع إن بلدي أعيد إلى العصر الحجري بهمجية الحداثة.

يتحول الظفر الذي يلهج به الداعية هنا واقعاً صوفياً غامضاً، يعوم هناك بعيدا في الفضاءات اللامتناهية، في صمت الكواكب غير المأهولة حيث لا ترى الاشياء الا بالعقل المخمن، بالحدس المتأمل. وما ضر لو أنك لن تصدق. ستكون أحمق، أو بليدا، إن لم تكن خائناً، أو في الأقل متخاذلاً، أو جباناً رعديداً.

حكماء الظفر بالانتصار ينتظرونك عند منعطف الشارع حاملين لك كل نياشين المهانة هذه. في الماضي كان العبد يوسم بالحديد المُحمى على جلده، ليحمل ندبة العبودية ما بقي حياً. نحن نحمل هذه الندوب في أرواحنا، بفضل الحكماء الذين يمتطون، بكلمات روزا لوكسمبورغ، "حمار الحكمة" مزهوين.

الحق أقول لكم: هذا الزهو كله (حتى لو كان ثمرة حقيقية) لا يساوي دمعة طفل، فكيف بقطرة من دمه! و في هذا اتذكر نصح كانط الانساني، اتمناه أن يغدو صلاة الانسانية:

"من المستحسن فور انتهاء الحرب و توقيع معاهدة السلام أن

يفرض الشعب (المحارب) على نفسه يوما للتكفير استغفاراً من السماء باسم الدولة، عن الجريمة التي يثابر الجنس البشري على اقترافها برفضه الامتثال لدستور شرعي ينظم العلاقات بين الشعوب، مفضلاً بدافع من عنجهية الشعور بالاستقلال، الوسيلة الهمجية المتمثلة في الحرب (علما أن الحرب لا تحسم ما هو مطلوب أصلا، أعني حق كل دولة).
إن صلوات الشكر التي ترفع إلى الله اثناء الحرب لقاء كل انتصار يتم احرازه، و الأناشيد التي توجه (على الطريقة الاسرائلية) لرب الجند لا تقل تناقضاً مع الفكرة الأخلاقية التي نتصور بها البشرية، لأن مثل هذه الصلوات و الأناشيد الورعة تعبر عن فرح قتل العديد من الناس أو تدمير سعادتهم، إضافة إلى كونها تعبّر عن عدم اكتراث بالغ بالطريقة التي تسعى بها الشعوب وراء حقوقها".
(:كانط: نحو السلام الدائمـ ترجمة نبيل الخوريـ بيروت 1985).



النصر، الظفر، الانتصار، الهزيمة

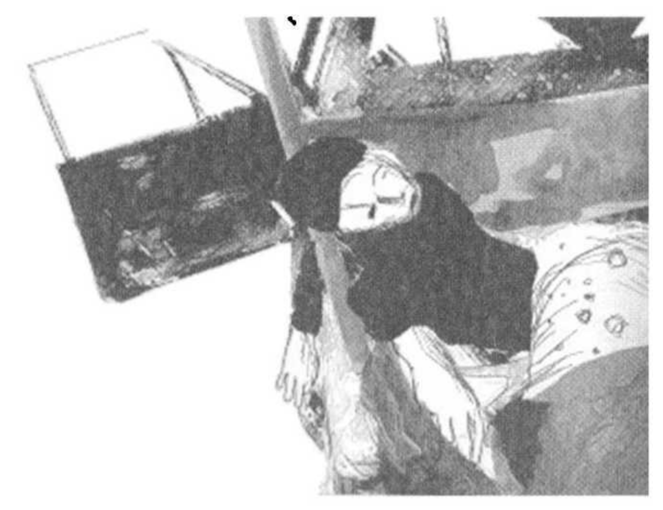
(23)

ثمة قدر من الحمق لن ينتهي. حملتني المصادفة في واشنطن، قبل وبعد الحرب في لبنان، إلى لقائين للخبراء في صدد لبنان. الأول دار كله حول إمكانات زوال "حزب الله". راعني عمق السذاجة في هذا الاندفاع. والثاني دار كله حول سبل المفاوضات. واذهلني البرود التام في هذا المسعى. ثمة التباسات ناجمة عن الأوهام أو الإيهام.

لست في وارد الدفاع عن "حزب" أيما حزب، كما لست من المغرمين بدمج السياسة بالدين، ولا الطائفية بالسياسة. لكن "حزب الله" ليس مجرد ميليشيا محلية يمكن سحقها بالآلة العسكرية الاسرائيلية. فهو فكرة، وهو ايديولوجيا. وهو حزب "سياسي"، بل هو، أيضاً، حركة اجتماعية (أوسع من حزب سياسي). وهو تنظيم اجتماعي (متداخل بالطائفة الشيعية)، وهو مؤسسات رفاه (خدمات) اجتماعية، وهو ميليشيا شبه نظامية، واخيراً هو جزء من جبهة إقليمية واسعة. هذه المستويات المتراكبة تجعله في وضع فريد لجهة استمراره. المؤسسة الأميركية حمقاء أن لم ترَ إلى هذه الحقيقة.

ثمة مثال في أفلام هوليوود: روبوت مدمر، يذيبه خصومه بالنار إلى قطرات معدنية، فتتجمع القطرات وتلتئم لتبني الكائن ـ الروبوت من جديد. لا يمكن تدمير "حزب الله"، إلاّ بحل جنوني: تدمير كامل للطائفة الشيعية، ومحق سوريا وايران، أو تدمير الإرادة السياسية فيهما! فكرة تدمير "حزب الله"، لا تقل خرافة عن فكرة تدمير اسرائيل. هل تداعب هذه الفكرة خيال "حزب الله"؟ لا أدري. خطابه الإعلامي

يركز على فكرة الدفاع عن لبنان، حالياً، وعن استرجاع الأسرى والمزارع سابقاً. لماذا لم يبدأ الحزب نشاطه العسكري في شبعا، ليكسب هذه الرمزية الوطنية قوة أكبر؟ أظن ان السبب هو افتقاره إلى امتدادات في العرقوب ذي التكوين السني ـ المسيحي ـ الدرزي.
الانقسام السياسي في لبنان، بين إصلاح الدولة والتحرير، هو انقسام عمودي، بين طوائف أيضاً، وليس مجرد انقسام أفقي بين تيارات سياسية. قوى الطوائف تخلت عن السلاح منذ عام 1989، إلا "حزب الله". وهو يريد الحفاظ على منطق الدولة (المشاركة في الوزارة، والدخول في الانتخابات)، مثلما يريد الحفاظ على منطق الميليشيا والاحتفاظ بالسلاح خارج نطاق مؤسسات العنف الشرعي.
يريد "حزب الله" الدنيا والآخرة، الدولة الخاضعة للرقابة القانونية، والميليشيا المتحررة من أية رقابة غير ذاتية!



لحقيقة

(24)

في السبعينات كانت اقذع شتيمة للخليج انه مجتمع خدم، أما لبنان (في وصفه لنفسه) فهو مجتمع خدمات واقتصاد حر، أي مجتمع ينتج الثروة بالكد والمعرفة، ولا يتلقاها حاضرة على طبق من فضة أو ذهب نفطي. اليوم يحذو لبنان حذو الخليج. ثمة جيل كامل من خدم العالم الثالث: سريلانكا، الفلبين، بنغلادش، يملأ شوارع بيروت. قبيل اغتيال الرئيس الحريري، مررت ببيروت بحثاً عن دارة بين جبل وبحر نكتريها، فتكون حافزاً للإبحار مجدداً عبر القنال الانجليزي، والبحر المتوسط، عائدين صوب الشرق. أفتقد بيروت اكثر بعد أن ضاعت بغداد.

عند نزلة بربر تزكم انفي رائحة الشواء، والخبز.

النادل يرمقني بنظرة استغراب، لم أدرك مغزاها. ثمة غرابة في المشهد. ثمة شيء ناقص. أو ثمة شيء زائد.

العوائل البيروتية في الآحاد ترتاد المطاعم. هو تقليد متوسطي بهيج. لكن بربر يخلو من أية سحنة لبنانية. ها أنذا محاط بسديم من بربرة آسيوية، فيليبينية بالأحرى. كنت العربي الوحيد. جائعات الفلبين يحتفين بآحادهن على غرار البيروتيين. ثمة طابور كامل منهن ينتظر دوره لمكالمات هاتفية بسعر زهيد عند أحد الدكاكين. قاعة الانترنت التي خلت هي الأخرى من طلبة وطالبات الجامعة الأميركية، تمتلىء الآن بالفيليبينيات اللواتي يجرين المهاتفات عبر الانترنت بأقل من دولار.

هذا الجيل سيحل محل الشوفير البيروتي الفقير خلال العقد القادم، هكذا قلت في دخيلتي. الرعيل الأول من الشوفيريه كان مسيحياً، والثاني سنياً، والثالث شيعياً، أما الرابع فسيكون فيليبينياً. وحين يرتقي هذا الأخير سيلصق السريلانكي بهذه المهنة. ولعل البيروتي المفقر سيجد تعويضه في امتطاء الليموزين الفارهة في خدمة أساطين المال.

يفقأ العالم الثالث دمامله على أعتاب أوربا قارة الثراء الجديد، منذ قرن؛ أما اليوم فإن ثآليله تهاجر إلى عالم النفط منذ عقدين، وها هو لبنان، بعد سكون الحرب الأهلية، يدلف نادي المحظوظين.

ألتقي الخدم كل صباح في السوبرماركت، صار وجود الخادمة إعلاناً للوجاهة أكثر منه حاجة. في الماضي، كانت نساء الطبقة الوسطى تعلن عن الثراء بالحلي والمجوهرات. واليوم بات الإعلان وجيزاً: شفاه منتفخة بجراحة تجميلية، وأفخاد نحيلة مشفوطة الدهن في دكاكين الجراحة، وخادمة.

ألتقي الخادمات أيضاً في دوائر الهجرة، وأقف في الطابور لأسجل وجودي شأنهن، مع فارق أن جواز سفري لا يفارقني، فأنا بلا سيد، بالأحرى بلا سيدة.

ثمة صمت ثقيل يحيط بوجود هذه الكائنات. برزخ اللغة يبقيهن نائيات، مغلقات، منكفئات. فالوجود المحض هنا هو إعلان صارخ عن الانتماء إلى القاع.

مرة رجوت شغيل طرمبة بنزين آسيوي أن يلزم السائقين بضوابط الدور، فقال لي بانجليزية مكسّرة: "من أنا لأقول لهم أن يكونوا مؤدبين، يحترمون تسلسل الدور، أنا؟ من أنا؟ لا أزيد عن مجرد حذاء".

كان شاباً وسيماً، في العشرين، خمري اللون، لعله من شمال الهند حيث تبدأ البشرة بالافتراق عن السمرة الداكنة، وبحكم اتقانه الانجليزية، والمرارة المهذبة التي انسابت ظننته طالباً جامعياً هجر الدراسة بأمل كسب ما يسعف على المواصلة. الارتقاء المؤجل، مرايا الاحلام المكسورة، الوضع اللابشري. أطبق علينا صمت ابي الهول، ودلفنا صحراء الكلام: مجرد حذاء!.

وللخدم حكاياهم، يرويها السادة دوماً، أو خدم آخرون ينوبون بها عن بوحهم الذاتي.

"نورما" (الفيليبينية) قال الناطور "تعيش مثل ملكة، سيدها يعيش في باريس ولا يأتي إلا في الصيف. وهي تدير البيت - بل قصر يا رجل - لوحدها.. مثل الملكات" أي بلا سيد. نورما ضئيلة، نحيلة، قصيرة، وأيضاً، كهلة، لكنها ترتعد هلعاً حين تخدم في بيوت الآخرين طلباً لدخل إضافي. لا ادري إن كان ثمة في الوجود من يفكر في اغتصابها، لكنها تتصرف بهذا الهاجس المعلن. بقيت صامدة طوال الحرب، هي الملكة بين نساء القاع.

مرة حظيت بسائق لا يكف عن التصرف بغطرسة مثيرة للعجب. عرفت السر بعد عذاب: كان يعمل شوفير عند رئيس للوزراء. فهمت عندئذ أن شوفير رئيس الوزراء هو في الواقع رئيس وزراء الشوفيرية. لعل نورما هكذا.

جيرمين، زميلتها، الأقصر والأنحف، يافعة ما تزال، يؤويها "مالكها" في بلكونة لا تسع خروفاً، سوّرها بالزجاج لتغدو "مسكن" الخادمة. راعني ضيق المجال فقال المالك في جذل "صغار القامة تدحشهم كيفما كان".

ابتكر مالك آخر حلاً مغايراً: إكترى كوخ كلاب وأقامه في ركن قصي. يشبه هذا الكوخ منازل الأقزام.

في حومة الحرب، اختفت آلاف الخادمات. هربن من بيوت السادة، تاركات مرتباتهن، وجوازات سفرهن. إجلاء بيروت على حساب الدول الراعية كان الفرصة السانحة. ماريا الفيليبينية توارت عن الأنظار. لم تأخذ حتى قطعة ثياب. كانت تهاتف شاباً في الفليبين لعله حبيبها!، تنفق كل ما تنال على هذه المكالمات الدولية المكلفة. من ارغمها على العمل المنزلي في ديار الاغتراب؟، أب عاطل، أم مترملة، أم؟ هي ذي الحرب تحررها من الأسر.

خسر المالك ثمن تذكرتها ورسوم اقامتها، شاكياً هذا المآل لجيرانه.

ثمة مصادفة ألقت بي في طريق خادمة منزل صومالية. جاءني صوتها الناعم، بانجليزية مكسرة بغمغمات كلمات لبنانية: اسمي جو. قالت. قلت: احمل لك ألفي دولار من أختك في أربيل.

كانت تلك مفاجأة سارة، انقلبت نكداً. فالسيدة لا تسمح لها، بالمغادرة لاستلام الرسالة. لدينا (تقصد لديها) تنظيف، وجلي، والبيت مكركب، والمكان بعيد. نحن في انطلياس، نبعد أكثر من ساعة عن بيروت. أعرف بيروت جيداً، انطلياس لا تبعد اكثر من 20 دقيقة بالتاكسي. لم لا تأت انت؟ كان صوت السيدة هلعاً. فجعت أكثر بنبأ وصول "ألفي" دولار لخادمة. تعال أنت. خذ إجازة من ستك. انهتك الستر. السيدة تظنني خادماً منزلياً، فما دمت أتصل بخادمة، فلا بد أن أكون في منزلتها ومن قماشتها. كيف يتأتى لخادم أن يحمل ألفي دولار لخادمة، ومن أختها التي

لا بدّ أن تكون خادمة. ما بال الخدم هذه الأيام يجنون ويكسبون! قلت للسيدة أن جو الصومالية ليست عبدة عندها، وأن عليها أن تخلي سبيلها لاستلام الرسالة والأمانة. وزجرتها بغلاظة عراقية لكي تفهم أن الرسالة وصلتني عبر وزير في العراق. تلعثمت ورضخت. هو سحر الألقاب. جاءت جو: يافعة في العشرين، بسروال ضيق، آخر شياكة، وتبرّج بيروتي فاقع. قل لأختي سأتزوج مثلها وأهرب. وللخدم نجاحاتهم. السريلانكية، قال الشاعر، لها حمية خاصة في تنظيف البيت، زجاجاً وأرضية، لكن لها همّة أكبر في تنظيف الجيوب. فما من ليرة تمكث لحظة واحدة في جيب أي سروال بمجرد تعليقه على الشماعة. أما البنغلاديشية المسلمة، فاطمة، فقد تزوجت من لبناني. وجهها الصبوح، أسره، ثمة مرشحات أخريات قد يلحقن بها، فالجميلات من الفليبين يتأبطن بعضاً من أوسم شباب لبنان في جل الديب! وانطلياس شمالاً، أو عاليه وبحمدون شرقاً... ويتمايلن عاشقات، مولهات. فالحب عندهن مسافر كوني يعبر جسور الفقر، مثلما يجتاز برزخ الثقافات.



الحب مسافر كوني

(25)

السجال العربي حول خراب لبنان باهت اللون. السجال اللبناني مبرقش. الحقيقة، يقول لك الغربي، هي أول ضحايا الحرب. السجال يتوقف، المصارحة تتلكأ حتى تعمّ التأتأة الأفواه كلها. في بلدان الحزب الواحد "لا صوت يعلو فوق المعركة". في بلدان الطوائف المتعددة يصعب فرض هذه القاعدة.

في لبنان ثمة تساؤل صريح عن جدوى الحرب، جدوى اختطاف جندي أو اثنين. في اسرائيل ثمة احتجاجات على الحرب (27 في المئة يعارضونها) وتجهد حكومة اولمرت إلى لملمة إجماع "وطني".

المشكلة في لبنان أن الخروج الكلي من نفق الحرب الاهلية يعني استعادة الدولة الدستورية، كاملة غير منقوصة. وهذه الاستعادة تقتضي ارساء المبدأ الكلاسيكي المعروف: احتكار الدولة لوسائل العنف المشروع. وكان هذا أكبر بند من بنود اتفاق الطائف. لعل في وسع طوائف لبنان التماس حل من الحلول، لولا أن لبنان عالق في المشكلة الاقليمية. من هنا عدم اكتمال الحل بنزع كل سلاح خارج التفويض القانوني للدولة.

الحقيقة أول ضحايا الحرب، يقول المؤرخون. والمدنيون، يقول الانسانيون، هم أول ضحايا الحرب. كلا القولين مصيب.

ثمة مليون نازح من جنوب لبنان، فقدوا جنى العمر، أو جله. وثمة مليون نازح من شمال اسرائيل. نازحونا ضحايا العدوان. نازحوهم

دليل انتصارنا. في الميل الاول، يصوّر النازح من الوجهة الانسانية. في الثاني يصوّر النازح من الوجهة العسكرية. صواريخهم تطال المدنيين، وصواريخنا تطالهم أيضاً. ثمة اعتذارات من الجانبين. منطق الوطنية يقتضي توزيع القدح والمدح بالقسطاط، عليهم وعلينا.

منطق الحرب مثل تفاعل متسلسل. تقول اسرائيل أنها تريد ضرب المحارب وإقصائه عن جنوب لبنان. اقصاؤه يتطلب قطع الجنوب. فلتدمر الجسور والطرق اذاً. وإقصاؤه يقتضي قطع لبنان عن محيطه. فليقصف المصنع، ولتبتر أوصال بيروت عن طرابلس. واقصاؤه يتطلب أيضاً زيادة السخط عليه. فليمنع الوقود ولتمنع المؤن عن المرافئ. الوقود، قال لي خبير، لا يكاد يكفي اسبوعين. وانقطاعه عن مدينة حديثة كبيروت يودي بحيوات الألوف من المدنيين. ثمة إبادة جماعية، اذاً.

يبدأ منطق الحرب بمسعى و مطلب افراغ الجنوب، وينتهي بتدمير منظم للبنى التحتية، وبإبادة مباشرة أو غير مباشرة للمدنيين.

(26)

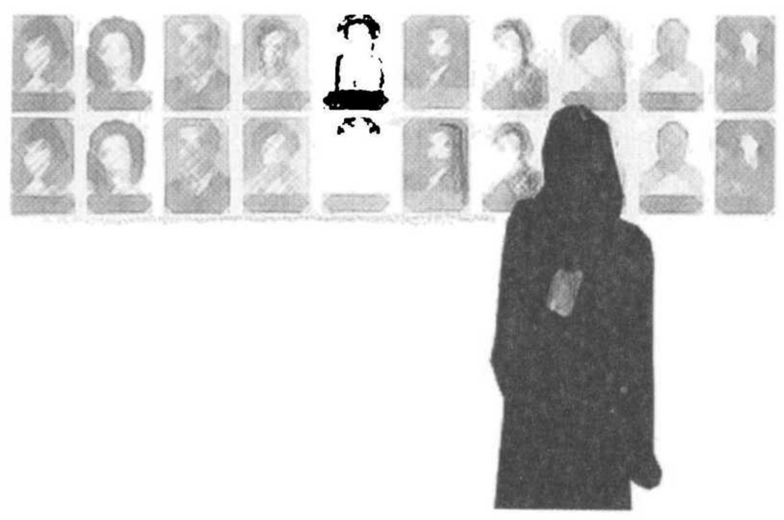
في وسط خرائب الضاحية وخلال الهدنة الانسانية التي اقترحها الروس، ظهرت قوائم بأسماء ضحايا الحرب. بعد الحرب نشرت قوائم اخرى رأيت بعضها في بنت جبيل المدمرة.

ورغم أن الكل سموا شهداء، فإن ثمة مراتبية بينّة. فثمة "الشهيد" من دون نعوت، وثمة الشهيد "المظلوم"، وثمة الشهيد "المجاهد"، وثمة الشهيد " المجاهد" "القائد". لعل بالوسع قبول "المجاهد".

يمكن ضمناً ادراك الفرق بين الشهيد القائد والشهيد القائد المجاهد، الاول لم يكن في ميدان المعركة أو كان بلا سلاح "والمجاهد القائد" كدالة على الانتماء ، وعلى الرتب الحزبية، لكن تمييز الشهداء بصفة "مظلوم" إلتبس علي. فهل هناك من استشهد "بحق" مقابل آخرين استشهدوا "ظلماً" أم لعل تعبير المظلوم كناية عن الانتماء الخاص؟ يظل التميز هنا ملغزاً. لعلي بحاجة إلى أن ألتمس عون فقيه أو متحزب، بعد ان التزم الصمت كل من سألته قرب المبنى المدمر من عارفين. في الجنة ينعم الاتقياء قدر ما يشاؤون بالمسرات ، وأنهار الخمر (بكحول وبدونه) والعسل. وهي مملكة المساواة، في النعم، والمساواة في الخلود .

ثمة وثائق تعود إلى عصر الفراعنة تفيد ان حق الخلود كان محصوراً بالفرعون، ثم توسع ليشمل الكهنة، ثم توسع، بعدئذٍ ليسبغ على النبلاء. أما الفلاحون والحرفيون فبقوا محرومين من

هذا الحق حتى وقت متأخر. وورد في نص تاريخي فرعوني ما مفاده أن الفرعون يحذر الفلاحين من مغبة التقاعس عن الكدح في الحقل، أو السخرية من الكهنة والنبلاء، قائلا أن العقاب سيكون حرمانهم من حق الخلود. الإسلام جعل هذا الحق ملكاً مطلقاً للمؤمنين، بلا درجات ولا مراتبية. وليس بالوسع تخيل شهيد درجة أولى وآخر "درجة ثانية". فهذه المراتب هي من صنع خيال مجتمعاتنا البشرية رغم أن فكرة حساب السيئات وعدّ الحسنات تنطوي على مراتبية كمية : فثمة متفوقون وناجحون، وناجحون بامتياز. هل تحتسب فوارق الدرجات لا ادري، لا ادري؟..



شهداء ورتب



(27)

لا شعارات في بيروت. عدا النقاش التلفزيوني المحترس، المداور، المنمق، لا حوار ولا شعار. ثمة قدر هائل من مزاج الحرب في الإعلان المرئي العربي. أما الإعلام اللبناني صاحب البلوى فأكثر ميلاً لرصد الوقائع. الحماسة من اقدم فنون العرب. الحماسة ترعبني. ثمة فيها نطفة تعاطف، وتكافل جمعي، ضرورية للاجتماع البشري، لكن الحماسة تنطوي أيضاً على شحن عاطفي معطل للتفكير. كل انفعال يوقف عمل الترابطات المنطقية في الدماغ، لعله لهذا السبب قال حكماء الماضي أن العاطفة للدهماء، والمعرفة للخواص. هل يصح هذا على حالنا اليوم ؟ لا أدري.

خلت شوارع بيروت من الشعارات.. بغتة انبجست. لم تأت المبادرة من الأحزاب أو الحركات السياسية أو زعماء الكتل بل من المصارف. بنك عودة، البنك الفرنسي اللبناني، البنك الكندي، بنك HSBC، وSGBL و ... و ... و.

لا صور زعماء، ولا مدائح، بل دعوة بسيطة للأمل، وللبناء.

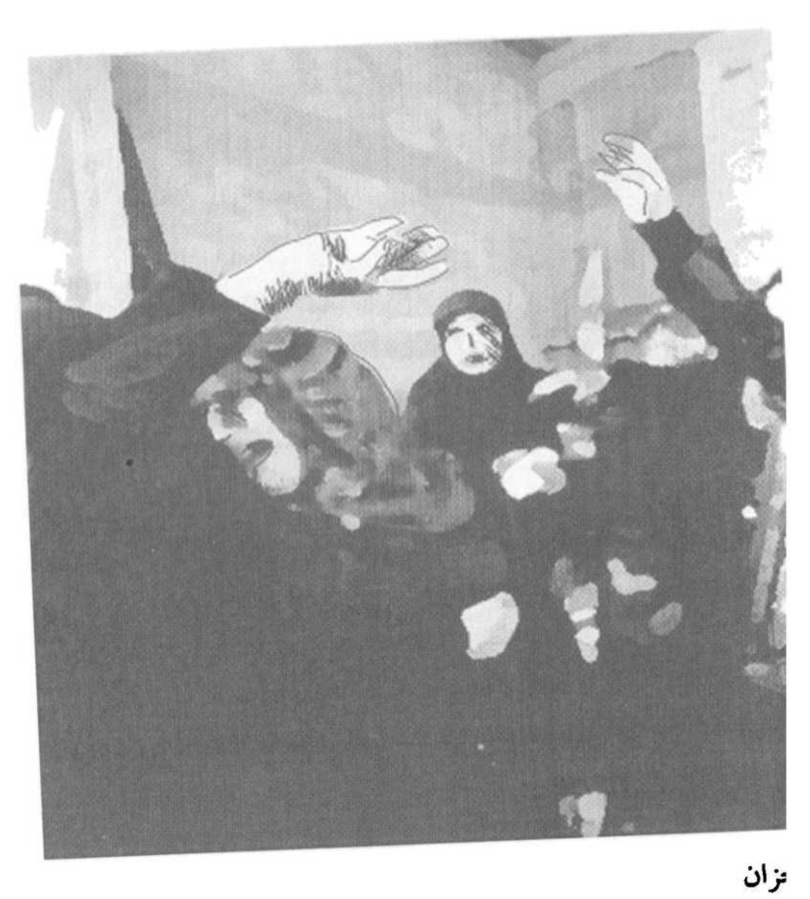
"اللي يعمر مرة، يعمّر ألف مرة" أو "عمار لا دمار" "صلب كالصخرة" ثمة دعوة للوحدة "كلنا لبنان".

ما الذي يحمل الصيرفي على الأمل ؟ وما الذي يحفزه على إذكاء جذوة الرجاء ؟ لعل الرسالة موجهة للنصف المهاجر من لبنان بالأساس، أما النصف الآخر فلعل من المفيد تلطيف

هواجسه. يلعب الصيرفي دوراً محورياً في اقتصاد السوق، فهو يضع عينه على الفائض النقدي الذي لا يلزم التداول، ويضع عيناً اخرى على الشح، لكي يقرض، وبهذا التوسط يجني ما يجني. ولا يريد لدوره الوسيط ان ينهار، فلبنان يحلق بجناحين، جناح الغربة، وجناح الوطن .

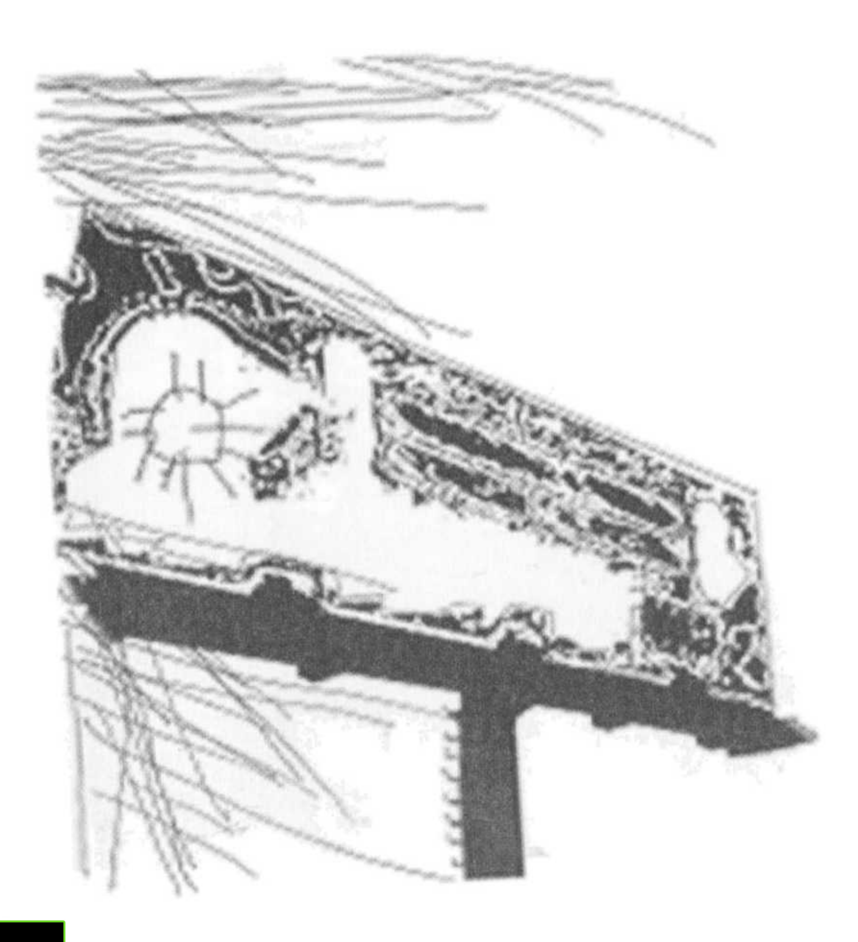
الصيرفي يركز على الاعمار وهو محق. فجل التعويض والعون الخارجي يضخ على اعادة البناء، أو قطاع العمران. لا ايديولوجيا في ذلك سوى ان العمران هو الضدّ غير المباشر للحرب.

ابتكر احد البنوك تعبير : "دعمار"، مع علامة النفي فوق حرف الدال. و لكن من ذا يحب العمران لذاته!



ـزان

ا



(28)

قال لي مفكر غربي معاتباً لا سائلاً: لماذا تبغُضون الباني، وتحبون المحارب ؟ كان يشير إلى الجمهور العربي، أنا بمن فيهم .
لم أعاين الأمر من هذه الزاوية. نعم يعشق الجمهور المحارب. الحرب أقدم الفنون، وأكثرها إيلاماً. لا شك عندي من أننا أفشل أمم المعمورة قاطبة في فن الحرب، وأكثرها تخلفاً في ابتداع أدوات العنف. لماذا نبغض البناة؟ مخيلتي تخلو من أية فكرة عن هذا السؤال. يا للخواء!
اليوم احترقت البارجة الإسرائيلية، سعير هائل. فور إعلان النبأ، ضجّت الشوارع الخالية بزمامير هائجة. ألسنة اللهب تندلع قبالة الشاطئ ولا سبيل لكل بيروت إلى رؤيتها.
بدا الزعيم الشاب هادئاً متزناً وهو يزف النبأ. هو ذلك الهدوء المضغوط بإرادة قوية على أوتار القلق. ينز التوتر من مسامات الهدوء الرصين، لا تخطئه العين. ضرب البارجة أشعل حماسة الشرق الأوسط بأسره، أما مشاعل الميركافا المحترقة في سهل الخيام فألهبت الخيال. هاتان اللحظتان غيرتا الأمزجة في لبنان. ران الصمت على النقد الذي توارى سريعاً. وبدا لبنان برّمته فخوراً بأنجازه وإن يكن الثمن فادحاً.
عقلانية الحرب أو لا عقلانيتها لم تعد موضع أخذ وردّ، البسالة والمفاجأة التي اجترحها المحاربون غطت على المشهد، وباتت هي بتحوير شعوري أو لا شعوري، محور الحرب .

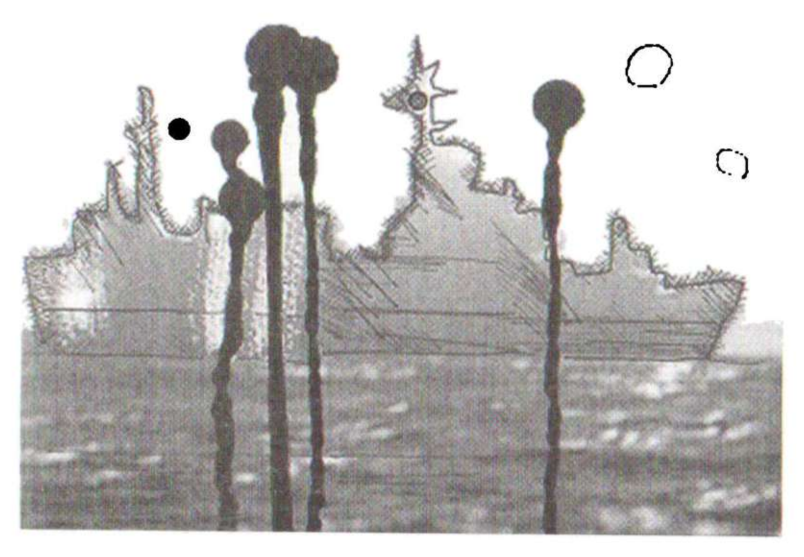
المهم أن ننتصر! الثمن المدفوع والدم المسفوح لم يعودا في الميزان، المهم رمز الانتصار، أم الانتصار الرمزي، هكذا قال لي شاعر بعد الحرب، أجبت، بعد الحرب طبعاً " أريد نصراً مادياً، مرة واحدة في حياتي". هل كنت سأتفوه بهذه العبارة عينها لحظة احتراق بارجة الميركافا قرب شواطئ بيروت؟ لا أظن. فملكة الشك تتعطل لحظة الانغماس في كرنفال النصر المقام من حولنا.

لو كان النصر سلعة لها كلفة تحتسب أرقاما لها اسعار متباينة، تعلو وتهبط، لكنَا فكرنا ألف مرة قبل أن نقدم على الشراء أو أن نشتري لحظة " نزول" السعر في بازار المواجهات .

الحرب عند كلاوزفيتز "بزنس" من ألفها إلى يائها. لم يقرأ العرب هذا الكتاب، أنا قرأته متأخراً وبالحاح من صديق. عبارة " الحرب امتداد للسياسة بوسائل أخرى "التي سبكها كلاوزفيتز هي الشيء الوحيد المعروف من كتابه.. وذلك بفضل لينين الذي استشهد بها. الحرب بزنس. الأمن بزنس. ثمة كلفة. لو أن حماية سوق معين أزيد من مداخيله، لكان الدفاع عنه عقيماً. ثمة دوما معيار الربح، عدا عن السلع الاستراتيجية التي من دونها الموت الزؤام. النفط مثلاً، أو الطاقة. للحرب إنفاق input، ولها مردود output ولا بدَ من حساب هذا وذاك، والحرب أيضاً فن إدارة، وتوجيه، مثلما هي فن اقتصاد ومداورة. لعلها أصعب الفنون قاطبة.

هدوء الزعيم الشاب اعجبني. بدا لي تعرّقه إنسانياً، وجميلاً، فما نفع القادة إن لم يقلقوا إزاء الدم المسفوح والحيوات المفقودة. بدا لي التعرق دلالة على ذلك الانسحاق الروحي بالألم ازاء ما هو بشري: ألم الفقد، الألم إزاء الآلام المستشرية .

بدت الخطابات منذرة بتوسيع رقعة الحرب، واسرائيل تبدو في ارتباك. أحب العرب هنيهات السعادة تلك. ولعلها كل ما سنجني. المكاشفة لا تخلو من وعود تبدو صعبة.



البارجة



(29)

ألمح السيد حسن نصرالله إلى أنه لم يقدّر حجم رد الفعل، وأنه لو عرف لما أقدم على ما أقدم عليه. في هذا الاعتراف لمسة تواضع و كبرياء، أذكر قولة لديستويفسكي بأن الاعتراف الذاتي، أو البوح، شبه محال، من هنا بغضه لـ "اعترافات" جان جاك روسو الحافلة بكل ضروب التصنع، حيث الراوي هو موضوع الراوية، وحيث المتكلم هو الممثل والنظارة في آن، هو المسرح والجوقة، المخرج، والجمهور .

الإقرار بخطأ التقدير كسر هذا الأقنوم. أرى في الاعتراف الصغير كبرياء صادقة. لكن المؤسسات لا تفكر بهذا المنطق.

المؤسسات بعامة تنشد الحفاظ على مظاهر الأشياء فالسياسة عندها هي فن الإخفاء لا البوح، المؤسسات تحسب حساب الربح والخسارة لا حساب الحقيقة والزيف.

يقول ديستويفسكي أن العظمة الحقيقية هي التواضع. كان نصرالله متواضعاً ويقول مونتسيكيو حاثاً أقرانه: فلنكن أثرياء أو لنتظاهر بالثراء. المؤسسات داندية مثل مونتسيكيو .

(30)

بعد أن غزت الاعلانات الملونة الصادرة عن البنوك مفارق الطرق، اكتسى الطريق الرئيس المؤدي إلى المطار بعد وقف إطلاق النار بلوحات اعلانات ملونة، أنيقة، تملأ اللوحات الزجاجية التي تزدان بها اعمدة الكهرباء. في حزيران كانت وجوه كونية تطل من هذه المربعات الزجاجبة : لاعب الكرة الانجليزي بيكهام، أو الاسطورة البرازيلي رونالدينو، وزميله الآخر كارلوس. ثمة أيضاً الأسطورة الفرنسية الجزائرية : زين الدين زيدان. الكل يرتدي ملابس بألوان البيبسي كولا، ها هم أحدث المتلاعبين بالكرة في العالم وهم يقدمون واحداً من أقدم المرطبات الغازية في اميركا. اختفى هؤلاء بعد نهاية كأس العالم. حلت الآن صور السيد نصرالله مبتسماً، حالماً، سمحاً، ومن ورائه مسجد قبة الصخرة، الرمز الاقدس بعد الكعبة، ثمة لعب على عبارة نصر من الله، واسم السيد: نصرالله. كل كلمة من "نصر من الله" خطت بلون مغاير، حتى تقرأ مرتين: مرة كشعار سياسي - ديني، ومرة كإسم علم . ترشح الإعلانات برغبة دعائية قوية، لنقض المصارحة القلبية التي انطلقت في لحظة من الجرأة لا نظير لها في التاريخ السياسي للمنطقة، التي تهرأت بالفاظ النصر الفارغ قرنا أو أزيد. ترشح الاعلانات أيضاً برغبة في اطلاق نوع من عبادة الشخصية. فالأجهزة كما قلت، تربأ بمقاييس الزعيم، وتريد الزعامة منقاة من كل ما هو أرضي.

تبدأ عبادة الشخصية من المؤسسات، من تخيلاتها ورغائبها،

كما تنبع من تلك الوشيجة التي تنعقد بين الزعامة والأتباع. ففي الأحزاب كما في الدول تتوفر هذه المؤسسات على رأسمال مادي، موارد هائلة للتوزيع، مثلما تتوفر على رأسمال رمزي، مواقع المسؤولية، والألقاب، والوظائف ذات الوزن الاجتماعي. يكتسب المركز في هذه المؤسسات، صلاحية التصرف، التي تؤلف نقطة جذب مثلما تؤلف محور بناء لعلاقة تبعية شخصية. خارج المؤسسة يتجرد الزعيم من كل ملامحه الأرضية، ويتأمثل بفضل مخيلة جماعية تنسب إلى الرمز كل ما تبغيه من كمال، وجل ما تتشوف اليه من نقاء وعصمة. تتضافر حاجات الجهاز مع مخيلة الجمهور لصنع الآلهة الأرضيين من ستالين إلى هتلر، ومن موسوليني إلى صدام حسين . انتاج الزعامة وعبادة الشخصية، عندنا يجري على نطاق أكبر، وإن يكن بشكل أكثر رثاثة .

كان اتباع رئيس مخلوع يهمسون في آذان زواره: يستطيع الرئيس، بنظرة واحدة، أن يقرأ الدخائل، فعيناه تخترقان الحجب!

هذه صور السوبرمان في أفلام هوليوود طبعاً.



اعلانات

(31)

شاركت نحو عشرين عالم اجتماع لبناني في جولة مفصلة بعد الحرب
، قطعنا الشريط الحدودي كله من البحر إلى جبل الشيخ. ثمة حزن
عنكبوت من الناقورة الرابضة على البحر غرباً، إلى قرية حاصبيا القابعة
في الوديان المحاذية لسفوح جبل الشيخ شرقاً، حيث تمتد ثلة من
القرى والبلدات، الناعسة، على تلال مشرئبة، أو وهاد كابية، أو وديان
غائرة، لتؤلف ما يعرف في الدارج اللبناني «الشريط الحدودي»، وهو
شريط متعرج إن رأيته على الخريطة، وهو صاعد، هابط، مستدير،
دوار، إن اجتزته سيراً على الأقدام، أو في حافلة. لبنان هو لبنان. لا
اسم آخر له. أما الطرف الآخر فله اسماء عدة: «العدو»، «دولة العدو»،
الدولة الصهيونية»، «اسرائيل» أو «اليهود». كثرة تتحدث عن اسرائيل
بـ «اليهود»، مفردة الجمع الشامل هذه.
في أيام صبانا كانت هناك اسماء أخرى تدوّي من اذاعة بغداد:
العصابات الصهيونية، شذّاذ الآفاق، الكيان الصهيوني. اليهود في أول
دستور عراقي كانوا يدعون بـ «الموسويين» نسبة إلى نبي الله موسى،
أما المسيحيون فيشار اليهم بالنصارى. التوكيد الديني للهوية تقليد
اجتماعي قوي، سائد في لبنان. أما التوكيد القومي للهوية (الصهيونية
حركة قومية وليست دينا) فهو عروبي، أي يرتبط بالايديولوجيا
القومية العربية.
التسميات تكشف الانتماء. فأسماء «اسرائيل» تتغير بتغير خريطة
الانتماء الديني ـ السياسي على طول الحدود.

لم اسمع تعبير «الدولة العبرية» إلا مرة واحدة من مثقف جنو...
العبرية لغة التراتيل الدينية، شأن اللاتينية في الكنيسة الكاثوليكـ...
اللاتينية اندثرت كلغة محكية، العبرية أفلحت في أن تكون «اللسا...
القومي» بقرار سياسي مسند بجهاز قسر مركزي: نظام التعليم، وثا...
الدولة الخ، لغة الاعلام، ولغة الاتصال في المؤسسة العسكرية. ما نفع
هذه الأصوات. الهند حققت وحدتها القومية بفضل سكك الحديد
البريطانية واللغة الانكليزية، منظومة العلامات والأصوات الكونية هذه.
لو التقى جنوبي قحّ من لبنان بجنوبي قحّ من العراق لاحتجنا إلى
ترجمة فورية كالتي نحتاجها نحن المشرقيين في المغرب العربي.
من بعيد يبدو الجنوب متجانساً، خصوصاً في صور الاعلام. ثمة
صورة الجنوب المحارب، الفاتح أبوابه على الموت، المزدري لكل
مباهج الحياة - إن وجدت - أو بقيمتها، الموحَّد في مواقفه وأقانيمه
وأمثولاته.
ثمة هوية جنوبية بلا مراء. ثمة المجلس الثقافي للجنوب، وثمة
مجلس إعمار الجنوب، وثمة الجنوب نفسه. هذه الهوية حقيقة بإزاء
بيروت، أوِ طرابلس، أو الشوف. لكنها مثل كل الهويات الأخرى
تحوي تشظياتها الباطنية، ولا تخفيها على الناظر عن كثب. التخفي
نتاج عرضي لبعد المسافات ليس إلا، أو لشغفنا بالاختزال وخوفنا من
التفاصيل، خصوصاً إذا كانت غير سارة. من علٍ تبدو الكرة الأرضية
زرقاء.
من الناقورة إلى حاصبيا أحصيت القرى والبلدات التالية: الناقورة
(سنية)، علما الشعب (مسيحية)، الضهرة (عرب بدو)، ثم يارين
والبستان ومروحين (كلها سنية)، يليها جيب شيعي: طربيخا وعيتا

شعب، حيث نجد ثاني مواقع لقوات اليونيفيل بعد الناقورة. بعد هذا
فاصل يأتي شريط مسيحي، ابتداء من القوزح، مروراً بقريتي رميش
يارون، وانتهاء بقرية عين ابل. بعد ذلك ينتقل الشريط الحدودي إلى
رقعة الشيعية الأكبر بدءاً من بنت جبيل الرابضة في قاع غور محاط
لال تنتشر عليها فيلات الموسرين، أو بيوت المعوزين. وتكتمل
تلقات العقد الشيعي بقرى عيناتا، عيترون، ميس الجبل، حولا،
ر كبا، العديسة، كفر كلا (قبالة المطلة الاسرائيلية)، فبوابة فاطمة حيث
جنود اللبنانيون القلقون من كاميرات الفضوليين والدخلاء، بعدها
تي قرى تل النحاس وبرج الملوك (الخربة سابقاً) وصولاً إلى مرج
لدة الخيام التي يُختتم بها القطاع الشيعي الحدودي.
ابتداء من كفركلا حتى الخيام، يبقى معك جبل الشيخ في الأفق،
معوداً أو نزولاً. فجبل الشيخ يهيمن على المشهد برمته. بعد بلدة
خيام نتجه شرقاً إلى قطاع مرجعيون، القطاع المسيحي ـ السني
مختلط. هنا العرقوب (أو اصبع الجليل) الذي احتضن المقاومة
فلسطينية في السبعينات بقرار قمة عربية وأمر واقع.
حرب الهويات هنا ظاهرة ومستترة، بالشعارات، أو الكلام، بالرموز
و العلامات. القرى السنية التي تفتتح الشريط الحدودي من جهة
بحر تعلن عن هويتها السياسية. أطياف الحريري، كما صوره، تخيم
على الطرقات، لا تنافسه سوى احتفاءات «الجماعة الاسلامية» بمقام
الأولياء. ثمة علم ايراني في جوار صورة ضخمة لمرشد إيران، السيد
خامنئي. مَن دسّه في هذه الرقعة السنية؟ «مجاكرة». الصورة مثقوبة
بالرصاص، وتندلق اشعاعات شمس الجنوب الحارقة من هذه الثقوب.
أما سارية العلم فقد مددت بعمود اضافي يرفرف عليه علم السعودية.

يخفق العلمان في عراء الجنوب مستعرضين للعالم انقسام الأهواء السياسية. أما القرى المسيحية النظيفة، المرتبة، الأنيقة، أو المتأنقة، فتبدو محايدة، بل حذرة، موزعة بين ماضيها الكتائبي، أو اللحدي، وحاضرها المنقسم إلى عوني وجعجعي. تبدو القرى حذرة. فلا مجاهرة بالصور أو الشعارات، كما أن الحذر يشوب القول والافصاح، وإن كان لا يخلو من غمزات ولمزات عن مزاج آذاري أو جعجعي، أكثر منه عونياً.

خلافاً للسائد في وسائل الاعلام المنقسمة إلى استكمال «النضال» أو دعم «الدولة»، ينطوي الجنوب على تلاوين عدة، رغم البغض المشترك لاسرائيل. فثمة الوجع الانساني على تبديد الحيوات، وثمة القلق من غموض المستقبل، وثمة الاختلاف في تفسير الماضي البعيد، وثمة التباين في تأويل معنى الحرب الجديدة.

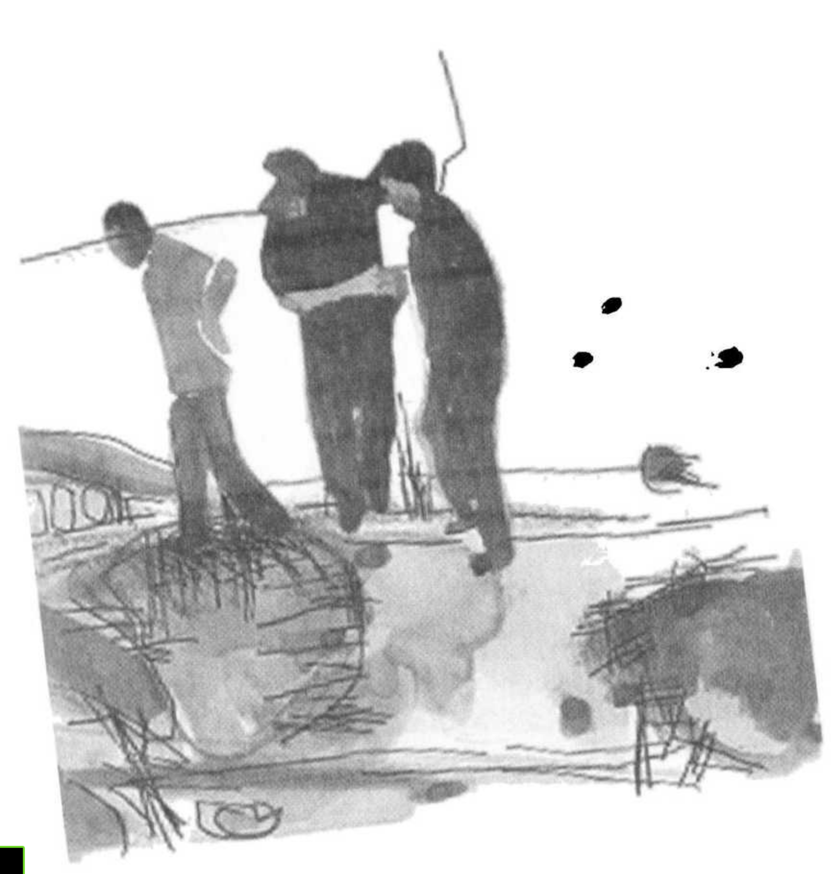
المزاج الجنوبي، إن صح الحديث بإطلاق عن مزاج كهذا، غاضب وملتاع مرتين. مرة على اسرائيل ومرة على الحرب، الحرب بذاتها، الحرب كوسيلة للبقاء. خارج الايديولوجيات السياسية ثمة ألم انساني عميق. فمن يارين (ما أجمل الاسم) مروراً بمروحين، وانتهاء بـ إبل السقي (حيث المطعم الفاره المحتفي بنزلائه الجدد من ضباط اليونيفيل)، تمتد قرى تحطمت الأعمدة السبعة لحكمة الوجود فيها. حقول التبغ المهجورة تخز عين الفلاح يومياً. انظر إلى فلاحي الجنوب الذين دبغتهم الشمس دبغاً: هذا هو الكائن المؤسس للحضارة، مخترع التدجين والتهجين، وأول بناة الاستقرار، ومراكم الفائض الابتدائي لنمو الجنس البشري وحضارته، ها هو يرقب الحقول في يأس مطبق. سألت أحدهم عن حقول التبغ فأشار إلى قطيع الماعز الذي يقضيم

أوراق التبغ في التذاذ ظاهر، وقال بألم دفين ما معناه: «بحياتهن المعزات ما بقربوا التبغات، أو يحلموا يشمّوها». ثم أضاف «هلق بياكلوها».
سمعت هذه القول المرير مراراً، بصيغ شتى. بانهيار حقول التبغ تنتهي دورة حياة الجنوبي المستقر (لا المهاجر)، بل تنتهي علة وجوده. ثمة سلسلة من التكافل الوجودي في القرى، بين تبغ الفلاح ومدارس أولاده وبناته، ونصيب الحِرفي والسائق والدكنجي، التابعين بامتياز.
قوات اليونيفيل هي الحاضر الغائب. مررنا بمفارق استراتيجية، ونقاط محورية، دون أن نرى لليونيفيل أثراً. تعجز الأمم المتحدة، في أحيان، عن استئجار أرض لبناء مواقعها. يبدو الجنوب سائباً، خلا بعض النقاط. يبدو الجنوب جائعاً، بلا مستقبل.
الدمار أصاب القطاع الشيعي بدرجة أشد، لأسباب جلية. لكن قرى سنية ومسيحية تعمدت معاً بالتدمير الشامل. في علما الشعب ثمة خمسة منازل دمرت تماماً، و75 منزلا تضررت جزئياً. لجان حزب الله تسابق حكومة السنيورة في تقدير الاضرار. ثمة شكاوى من محاباة في التعويض. من يضبط الاهواء؟ أما بنت جبيل فقد محق التدمير وسط البلدة، مقوضاً نحو الف وحدة معمارية. السوق القديم، التاريخي، ليس سوى اطلال. ورغم ان قطر تعهدت، كما قال الاعلام، اعادة بناء البلدة، الا ان هذا التعهد ليس على البناء بل للتعويض المالي عن الدمار. المعنيون بتاريخ بنت جبيل لا سلطة لديهم على توزيع الموارد، أو التصرف بها. ومن شأن متلقي التعويضات أن يختاروا الهجرة بالمال الجديد، تاركين الخراب قائماً. والمالك الغائب قوة تعطيل لأي مسعى للإعمار، من هنا يبدو الحديث عن «لإعادة إعمار» بنت جبيل بصيغة حديثة (أسواق فاخرة، إلخ) أو استعادة شكلها القديم (حفاظاً

على التراث) مجرد حكي اكاديمي، خلاف بين حداثيين وتراثيين.
لا أتذكر من قال ان الهجرة احتجاج على اللامساواة. لكن ينبغي أن نضيف: أنها تصويت ضد العنف. فالسر المكشوف في الجنوب: هل كتب علينا أن نعمّر ألف مرة؟



آلام الجنوب



(32)

تساؤل في منطق الحرب

لحرب أكثر من منطق، وكل منطق منها قائم بذاته، تحتكر الدول
وسائل العنف «المشروع» بحسب القول الكلاسيكي الشهير لعالم
لاجتماع الألماني ماكس فيبر. وكان عليه أن يضيف: أما الدول
لضعيفة فلا سبيل لها إلى هذا الاحتكار. وأمامنا اليوم مشهدان من
وحة واحدة: مشهد الدولة الإسرائيلية التي تحتكر قرار الحرب
والسلم، ومشهد الدولة اللبنانية التي تفتقر إلى هذا الاحتكار.

لمفارقة أن احتكار الدولة لوسائل العنف «الشرعية»، لا يعني،
ضرورة، أنها قادرة على التصرف بها من دون قيد. فهي بحاجة
لى إجماع الأمة، بل تنشده وتبلغه بوسائل شتى، من النقاش
لبرلماني، إلى الكذب الإعلامي، ومن إخفاء الحقائق، إلى رمي
لخصوم بالخنوع أو الخيانة. وبالطبع فدول الحزب الواحد، أو
لأسرة الواحدة لا تحتاج إلى وجع الرأس هذا لبناء «الوحدة»
لمنشودة، فهي قائمة بالكرباج، وبقوة المنع.

ونرى اسرائيل منذ 1982، شأن الولايات المتحدة منذ فيتنام، في
وضع من يستخدم الحرب ذاتها وسيلة لحشد الجمهور، وبناء
جماع لا يبدو يسيراً. صارت الحرب ذاتها، ناهيك عن مبرراتها
وأهدافها المعلنة، اداة لبناء الإجماع. فشق الجبهة الداخلية خطيئة

كبرى، حيث «الجنود يقاتلون على الجبهة». هذه عبارة تتكرر في الصحافة الغربية في كليشيه ثابتة. وعلى رغم ان المجتمع الإسرائيلي صار، بسبب نشأته وتطوره، مجتمعاً حربياً بامتياز، فمنطق الحرب المكرورة ذاته يولد أيضاً شيئاً من نقيضه، كما رأينا عام 1982. واستمرار هذا الميل مرهون أيضاً بالآخرين. ونحن نفعل ما في وسعنا لوقفه، بتكتيكاتنا الباهتة.

السجال السياسي الدائر في اسرائيل، بصدد الحرب، غير متجانس، وهو يتجاوز منطق الإجماع القومي الذي تنشده الدولة (كجهاز للحكم). في المقابل نجد ان السجال في لبنان اكتسى منذ اليوم الأول، طابعاً متعدداً هو الآخر، لا بفضل غياب مقولات الإجماع، بل بفعل الانقسام السياسي ـ الطائفي السابق للحرب. فالدولة اللبرالية القائمة ضعيفة اصلاً، وبعيدة عن احتكار المعلومات، ناهيك عن أي احتكار آخر. والانقسام في لبنان، سابق للحرب، بل أحد مسبباتها، وقد أطلق موجة سجال جريء، في الأيام الأولى على الأقل، عن حق إشعال الحرب، وجدوى إشعالها، ومصلحة لبنان.

بإزاء موتيفات الخطاب الإسلامي– العروبي، طرحت الدولة اللبنانية خطاب القانون والسيادة، مثلما استنفرت خطاب الوطنية اللبنانية أو موتيفات اقتصادية متفرعة: الحرب دمرت موسم السياحة (4 بلايين دولار) وتدمر فرص الاستثمار. وبدا ان النزعة العروبية– الإسلامية آيلة إلى تصادم مع النزعة الوطنية اللبنانية، بشقها القانوني أو السياسي أو الاستثماري.

جغرافية الحرب تلغي هذا التفارق إلى حين. فإذا كان فتح النار

على اسرائيل خرقٌ لحق الدوله في إقرار هذه الوسيلة، فاسرائيل اذ تسدد النار رداعليه، فإنما تطلق على الأرض اللبنانية. هنا منطق الحرب يلغي التفارق بين النزعة الإسلامية- العربية والوطنية اللبنانية. فالحرب تفرض، بالمنطق العسكري الصرف، قطع الخطوط وضرب البنى التحتية. لكن هذا يعني تدمير كل لبنان.
هذا التحول يقلب النقاش من مستواه الليبرالي المتنوع، إلى خطاب الإجماع، وهو إجماع لفظي قائم على إخفاء الصدوع، اكثر من رأبها. وألاحظ الآن في الصحافة المكتوبة، أكثر مما في الإعلام المرئي (الذي يتحول عادة إلى تهريج وبكائيات سقيمة) ان ثمة استمراراً في التساؤل والمساءلة والاعتراض، ولكن بنفس موارب، وصوت خافت، أو لربما بكياسة دبلوماسية بالغة التهذيب. تشكك هذه الكتابات في دوافع الحرب من منطلق المصلحة البارد.
لنعترف بأن هذه الحرب تختلف بعض الشيء عن سابقاتها في توافر هامش شحيح من حرية النقاش العربي عن حرب دائرة ضد خصم تاريخي، هو اسرائيل. فالنقاش، عادة، لا يدور اثناء الحرب، بل يليها. وهو ما حصل اعوام 1967 و1973 و1982 بعد هزائم متتالية، وعليه فالسجال اللبناني (للأسف لا توجد سوى امتدادات عربية محدودة له) يكسر الروتين العربي البليد، بصرف النظر عن عمقه، أو إمكانات استمراره أو حتى افتقاره إلى مناقشة الاسس الاخلاقية للحرب.
الا انه يكسر تفكيراً روتينياً آخر للحرب هو البحث عن علاقتها بالمؤسسة العسكرية. فالخبراء يكررون، بشكل رتيب، عبارة المنظر الألماني كلاوزفيتز من ان الحرب امتداد للسياسة، وينسون (لأنهم لم يقرأوا كتابه «عن الحرب») اموراً اهم يضيفها، منها ان الحرب ما ان

تقع حتى تكتسب منطقها الخاص، أي المنفصل عن عالم السياسة، وأن الحروب والجيوش تدار كما تدار الشركات. فهذا البيزنس التدميري يقوم على حساب الربح والخسارة. وهذه الحقائق تعطي للمؤسسة العسكرية احتكاراً يقيّد السياسة ويلوي عنقها. من هنا مثلا خشية المراقبين من ان اولمرت المدني بحاجة إلى «إثبات» صلابته (أو حاجة الزعماء العرب إلى البرهنة على الصمود).

ولا ريب في ان ثمن مثل هذه الصلابة باهظ، بضعة بلايين من الدمار، ومئات الأرواح. كما ان المؤسسة العسكرية تنمّي مصالح وقواعد خاصة بها. فالسياسي مثلاً، يضع لنفسه هدف «إقصاء» حزب من الجنوب، والعسكري يترجمها تدميراً لجسور طرابلس في الشمال، والمصنع في الشرق، ومرافئ جونيه في الغرب.

نحن لم ندرس الدور السياسي للجيش الإسرائيلي دراسة معقولة، لربما من منطلق الاعتقاد بأنه خاضع كلياً للمؤسسة السياسية. خشيتي ان المؤسسة السياسية خاضعة للخوذة العسكرية، فمعظم رؤساء الوزارات في العقدين الماضيين جنرالات مخضرمون، أو جدد. ويحصل هذا الأمر في اكثر الديموقراطيات رسوخاً. ألم يترشح ايزنهاور ويفوز برئاسة الولايات المتحدة؟ حتى المتطرف الجنرال ماك آرثر دعي إلى ترشيح نفسه للرئاسة مرتين من جانب الحزب الجمهوري. وهذا ملمح ثابت في ظروف الحرب. وهو روتين في المجتمعات الحربية، وإسرائيل واحدة منها.

فهل تتصرف الميليشيات اي القوات المسلحة غير النظامية على الغرار ذاته، ربما، ولعلها اكثر ميلاً للتمايز، أو حتى الانقسام، في ظروف الانتقال إلى العمل السلمي.



تساؤلات في منطق الحرب

(33)

تساؤل في اقتصاد البقشيش و ايديولوجيا البقشيش

في التعمير كما في التدمير، لا يدلف لبنان أو العراق أو فلسطين المعمعة إلا اذا كان ثمة من يدفع الفاتورة من "براً". هذا جزء من اقتصاد الخدمات .

الاشتباك اللبناني هو، في اصله وفصله، اشتباك ايراني - سوري - اميركي - اسرائيلي. الأزمة اللبنانية تتحدد خارج لبنان، احتراباً أو حلاً. الاشتباك العراقي داخلي في اصله، ايراني - اميركي - اقليمي في استمراره. وكذا حال فلسطين.

اقتصاد الخدمات السياسية يدمّر اقتصاد الخدمات الفعلية، يعبر السياسي الحدود، ويؤوب بحقيبة محشوة بملايين الدولارات. في اكثر دول الغرب ليبرالية لا يمكن لأي فرد ان يحمل في محفظته قادماً أو مغادراً اكثر من 10 آلاف دولار نقداً.

اقتصاد الخدمات السياسية هو "اقتصاد البقشيش" الذي يحلل اليابانيون معطياته بقرف مكتوم.

خلال الحرب يحاول رجال الأعمال، وبعض الساسة، تقديم خطاب عقلاني ضد العنف والحرب باسم السوق وفرص الاستثمار

وفرص العمل. اقتصاد السوق يتطلب كدّاً، ويواجه تقلبات دورية، أما اقتصاد الخدمات السياسية فأيسر: دخل ثابت مقابل ولاء للزعيم. نفصال تام عن ماهية الدولة وعن أخلاق العمل وعن مزايا الانتاج وعن المنافسة والتجديد.

قتصاد البقشيش الخدمي السياسي يلغي الفوارق في التعليم بين لافراد، ويضع حداً لعناء العمل وانضباطه، ويزيل بضربة واحدة، لخوف من مجاهيل السوق المتقلبة، حتى لو طفحت بفرص سانحة لصعود.

لمستهلك في اقتصاد البقشيش السياسي لا يكترث بالانتاج، أو لاستثمار أو عقلانية الحرب، أو لا عقلانية الاحتراب الاهلي. نهذه المقولات ـ الحقائق لا تعنيه في شيء. فالنقد الجاهز هو شريعته، وما عدا ذلك هراء.

قتصاد البقشيش يفصل السياسي وجماهيره عن حال الدنيا، مثلما بفصله الفقه أو الايديولوجيا الحديثة عن مسار التطور في التاريخ موقفاً اياه في نقطة سالفة في الزمن.

كما يفصلهما عن الآخرين، معمقاً خنادق الطوائف.

"فليحترق لبنان، ماذا كسبنا منه!"، "ليحترق العراق، ماذا كسبنا منه!" ـ "لتحترق السلطة الفلسطينية، ماذا كسبنا منها!".

لا يدرك ايديولوجي اقتصاد البقشيش هذا ولا جماهيره البكماء، ن لبنان أو العراق أو فلسطين دولة هشة وأن هذه الهشاشة هي سلعته الوحيدة، وأن سعر هذه الهشاشة في بازار السياسة الاقليمية كبير، وأنه يغنم هذه الميزة. ماذا نكسب من لبنان أو العراق أو نلسطين؟ كل الملايين! ببيع الخدمات السياسية في دولة ضعيفة.

في اليابان تزدري خادمات الفنادق أي زبون يحاول ان يدفع "بقشيشاً" ويرونه بمثابة إهانة بليغة، فهن يتلقين اجورهن على ما يؤدين من عمل. وفي معبد "الماء الطاهر" في العاصمة القديمة كيوتو ينتصب بناء خشبي عملاق بارتفاع عشرة طوابق. شيد هذا الصرح من دون ان يدق فيه مسمار واحد. أعمدة الخشب حفرت حفراً، وتواشجت في هندسة بارعة، ازدانت بكل أنواع الريازة. ولم يرتفع هذا الصرح بفضل عمل مأجور أو جيش من العبيد المساقين، بل بفضل دأب وبراعة الرهبان البوذيين انفسهم. فلولا مهاراتهم المعمارية، وبراعاتهم في الحفر، والنقش، والريازة، ولولا زنودهم في احتطاب مادة البناء أي الخشب، فوق هذا وذاك لولا زهدهم الدنيوي وتقشفهم الجسدي، مأكلاً ومشرباً، لما ارتقت هذه النصب العظيمة فوق الجبل المطل على العاصمة الامبراطورية كيوتو. يا لرهباننا الراكضين وراء متع تعدد الزوجات، والنقود المقدسة، السهلة، المعمدة بأسماء شتى.

قال لي قائل ان ما نأتي به من الجيران عرباً واعاجم ونوزعه هو مال حلال. والحلال في الفقه هو المال غير المسروق. أما الحلال في اقتصاد البقشيش فهو اخذ المعونات "النزيهة". أما الاقتصاد الحق فيرى في كل مال بلا جهد منتج حراماً. فالمال في اقتصاد البقشيش استهلاكي بحت، بلا تراكم معرفي أو اقتصادي، بل هو اللاتراكم معرفياً واقتصادياً. ولكن من عساه يرفض هبة بالمجان غير المعتوه. اقتصاد البقشيش مثل ايديولوجية البقشيش وظيفته الوحيدة هي الاستهلاك بلا انتاج، نوع من الريعية الخالصة، أما وظيفته الذهنية فهي تبرير بيع خدمات سياسية للآخرين، وتسويغ

تعميم هذا البيع. لا يهم ان يغلق بازار الخدمات ابوابه يوما وليسرّح عشرات الآلاف من "عمال الخدمات السياسية" الذين يقوم عملهم على الامتناع عن أي عمل، وإنتاجهم على انتاج لا شيء، ووجودهم على الوجود لأجل آخر. هل نحن في عصر جديد لسوق عجائبي؟.

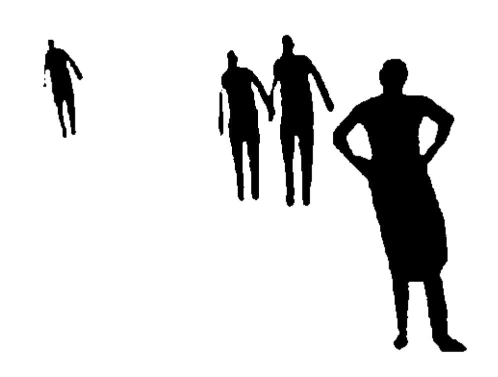
دعوني أجاهر بعتهي وبلاهتي، فالحرب والنزاع الأهلي هما أنجع وسيلة لهزيمة الاقتصاد الحق، وانتصار اقتصاد البقشيش، فهو ايديولوجيا الفوضى.

اقتصاد السوق يقوم على المعرفة، التخصص، ينبني على تعاقد يرسم الحقوق والالتزامات ويحدد أسعار الخدمات، مدتها، نوعها، وهو يتطلب معرفة بالحاجات وتدقيقاً في اكلافها وسبل انتاجها، اياً كانت هذه الحاجة، من موقف سيارات إلى تعقيب معاملات.

اقتصاد البقشيش لا يأبه بكل هذه الحسابات "الجليدية" فكل ما يقتضيه هو التسجيل في لوائح الولاء.

ثمة اسلاف لاقتصاد البقشيش . كان عالم الاجتماع الالماني ماكس فيبر يقسم الرأسمالية، أي انتاج الثروة، إلى صنفين. الاول غير عقلاني يقوم على النهب والسلب، نهب وسلب منتجات جاهزة، هي ثمار عمل الغير. ان كل ابداعات هذا النمط هو فن الاغارة، القرصنة في البحار، وحروب السلب في البراري، وحصار المدن. انه يُعنى بانتاج القوة، أو الغلبة بالتعبير الخلدوني.

أما النوع الثاني من الرأسمالية فيقوم على حسابات عقلانية: تنظيم الانتاج والتداول والتبادل. انه حساب اقتصادي دقيق، أو بتعبيره، عقلاني. ما حاجتنا إلى العقل. المهم "المصاري".



في اقتصاد البقشيش



(34)

تساؤل في الدولة واللادولة

منحتني الحرب فرصة للتفكير في كثرة كاثرة من الكلمات، فقد باتت هذه، بغتة، ملغزة، أو، في أحسن حال، ملتبسة، تفقد براءتها المعرفية، في بازار السجالات والسجالات المضادة.
أبرز هذه الكلمات: الدولة، الميليشيا، الدفاع.
فالدولة، مثلاً، لا معنى لها لأنها ضعيفة، عاجزة. فإن تمكنت وسمناها: اداة نهب، وإن عجزت سخرنا من وجودها.
الدولة ينبغي ان تتولى الدفاع. هذه وظيفتها. فإن عجزت استبدلناها بميليشيا. لو طبقنا هذه المقولة يتوجب ان تتولى الامم المتحدة انشاء نحو 150 ميليشيا تحل محل دول ضعيفة من هونغ كونغ، إلى موريتانيا، ومن جيبوتي إلى اليابان.
الدول الجبارة القادرة على الدفاع بذاتها عن النفس تعد على عدد الأصابع. وكما كان الحال في الماضي، تلتئم الدول الضعيفة في اتحادات، وتكتلات، أو تحتمي، شأن الموالي، بعصائب أقوى: قبائل كانت أم دولاً.
ضعف الدولة، هنا، يدفع المثقف إلى السخرية منها، أما السياسي فيحفزه هذا الضعف إلى البحث عن تحالفات وصداقات.
لما كانت الدولة ضعيفة عند من يزدريها، فإن الحل ليس تقويتها،

بل تقويضها!. تتلبس الميليشيات دوماً لبوساً أيديولوجياً كثيفاً، فهذا هو مسوغها الوحيد للشرعية. انها حاملة الوعد بالآتي، بشارة المستقبل، أو انها، بفضل "التضحيات" تكتسب "حقوقاً" في ان تقرر للآخرين جدواها هي.

تعتاش الميليشيا على اللادولة. ومنطقها هو تجاوز أي منطق، فحريتها هي فوق كل حرية. ولكي تخفي حقيقتها كجماعة مسلحة، تبرر نفسها بنفسها، فإنها تلبس اسماء: مقاومة، جيش امام، جند إلهيون، فدائيون، مناضلون، انصار.

تقوم الجيوش على عقيدة التدمير الكاسح. لكن القدرة على التدمير محض رادع لمنع التدمير المقابل. والجيوش اليوم هيئات واسعة، مقننة، خاضعة لضوابط وقيود، قانونية وسياسية.

الميليشيا هي الجندي المتحلل من أي التزام أو إلزام، انه الهيئة المقررة للحق أو اللاحق، من دون قواعد أو رقابة أو حساب أو كتاب.



ساؤل في الدولة واللادولة

بيروت... بيروت

وقف اطلاق النار كان مرتقباً، اليوم. لا غداً. أو بعد غد، عرفت به من صمت البدرون، وايقنت به من إخلاء مبنى الروشة. فالحشود البشرية توارت في رمشة عين، عائدة إلى جنوبها، موئل اقامتها، حيث كرامة الاكتفاء. عاد كثيرون بجراح أكبر.

لا دليل على أن بيروت استردت عافيتها إلا بِـغنج الاناث. عادت صبايا بيروت إلى اعلان حضورهن بذلك الجذل، الصاخب، المستعرض، بذلك السخاء في هتك الخصور والاكتاف، ذلك العري الفصيح، أو اللماح، المحاط بالألوان الصارخة.

عادت صبايا بيروت إلى بهجتهن. عادت بيروت تحتفي بالحياة.



سبايا بيروت

نص تقرير اخباري:

العواصم/ وكالات

توقع الرئيس الفرنسي جاك شيراك امس الاثنين ان "تستأنف الأعمال الحربية" في لبنان اذ لم يتم التوصل إلى "حل شامل ودائم" بين الاطراف كلها في المنطقة.

وشدد شيراك الذي ستتولى بلاده قيادة قوة الامم المتحدة في لبنان حتى شباط 2007 ان قرار مجلس الامن رقم 1701 يوفر "الاطار لحل دائم يستند إلى امن اسرائيل وسيادة لبنان على كامل أراضيه".

موقف اللبنانين

هذا واعرب 51% من اللبنانيين عن تأييدهم لتسليم حزب الله سلاحه بعد شهر من النزاع بين اسرائيل وهذا الحزب ، بحسب استطلاع للرأي نشرت نتائجه امس الاثنين.

ويظهر الاستطلاع الذي اجراه معهد "ايبسوس" ونشرته الصحيفة اللبنانية "لوريان لوجور" الصادرة باللغة الفرنسية تباينا كبيرا في وجهات النظر بين الطوائف المختلفة.

من ناحية ثانية، يؤيد 81% من الاشخاص الذين شملهم الاستطلاع انتشار قوة دولية معززة في جنوب البلاد على طول الحدود مع اسرائيل بموجب القرار 1701 الصادر عن مجلس

لامن الدولي الذي وضع حداً للمعارك.
.دة فعل من جانبه قال الأمين العام لحزب الله حسن نصر الله،
نه لو علم أن ردة فعل إسرائيل على أسر الجنديين ستكون بهذه
لقوة، لما قام بهذا العمل.
.قال نصرالله في لقاء خاص مسجل مع تلفزيون "نيو تي في"
لبناني الفضائي، "لو علمنا أن نتيجة عملية أسر الجنديين ستقود
لى الدمار الذي لحق بلبنان، لما قمنا بها".
.حول إمكانية تبادل الأسرى مع إسرائيل، قال إنه أصبح واضحا
ن لا حل للقضية بدون تفاوض.
.أضاف يقول: "إنه خلال فترة وجيزة، بدأت الاتصالات
لتفاوض، ويبدو أن ايطاليا تحاول الدخول في الموضوع، والأمم
لمتحدة مهتمة، والتفاوض سيتم عبر الرئيس (رئيس مجلس
لنواب نبيه) بري."
.في سؤال حول ما إذا كان بالفعل من بين أسرى حزب الله لدى
سرائيل هو أحد الذين نفذوا عملية خطف الجنديين في 12
موز، حاول نصرالله التهرب من الإجابة.
مجموعة التنفيذ
قال: "إن المجموعة التي نفذت العملية كانت كبيرة، وهي ذاتها
تي كانت تقاتل على الخطوط الأمامية، وبالتالي من الممكن أن
كون أحدهم قد أسر، ولكن الحزب سيتبين من ذلك بعد أيام".
تابع القول: "لذلك لا استطيع أن أنكر أو أؤكد هذا الأمر".
فيما يتعلق بحجم ما ستخدمه الحزب من عدته العسكرية خلال
قتال مع إسرائيل على مدى 33 يوما، أكد أنه "اقل بكثير" من

نصف حجم ترسانته.
وقال "الحجم الحقيقي للصواريخ التي سقطت على إسرائيل أكثر من أربعة آلاف صاروخ، وهذا أقل بكثير من خمسين بالمائة من قدرتنا العسكرية".
واستبعد ان تكون إسرائيل تحَضر لجولة ثانية من القتال، وأضاف بنفس الوقت، أن حزب الله سيتجاهل ما وصفه "بالاستفزاز" الإسرائيلي.
وقال: "هناك عودة النازحين لديهم وقد بدأوا بإعمار الشمال.. والذي يتعاطى بهذه الطريقة لا يبدو أنه ذاهب إلى حرب. لسنا متوجهين إلى جولة ثانية".
وأكد علي أن حزب الله يحتفظ بحق مهاجمة أي قوات إسرائيلية داخل الأراضي اللبنانية لكنه سيلتزم بضبط النفس في الفترة الراهنة.
وقال "إذا رددنا على الاستفزاز نكون قد خرقنا القرار الدولي 1701، وهذا قد يفتح النقاش على قرار ثان يسعى له (الرئيس الأمريكي جورج) بوش له علاقة بنزع سلاح المقاومة".

الاحتفاظ بالسلاح

ويقول حزب الله انه سيظل محتفظا بسلاحه، لكن نصر الله قال إن مقاتليه لن يحملوا السلاح علناً ما أن ينتشر الجيش اللبناني وقوات الأمم المتحدة في الجنوب.
وذكر نصر الله أن إسرائيل تحاول فرض مطالب جديدة، مثل نشر قوات الأمم المتحدة في مطار بيروت والموانئ اللبنانية وعلى الحدود مع سوريا.

حول الحصار المفروض على لبنان، قال نصرالله بلهجة
نحدي،"لا جدوى من الحصار.. فنحن رتبنا أمورنا على قاعدة
نرب تدميرية قاسية وطويلة". وحول الخلافات الداخلية في
نان، والتخوف من إقامة دولة داخل الدولة، في إشارة إلى
عبية وقوة حزب الله على الساحة، وبخاصة بدء توزيع الأموال
لى أصحاب البيوت التي هدمت، ووعد حزب الله إعادة البناء،
ل نصر الله:" لا منطق أو مبرر من الخوف من حزب الله.. انا
ـامل سلاحي للدفاع عن بلدي ضد إسرائيل".
ـل المشكلات
أكد أن حل المشكلات في داخل لبنان يتأتى فقط من خلال
نكومة وحدة وطنية.
اشار إلى أنه خلال اسبوعين سيكون جميع الذين هُدمت
ـازلهم جراء القصف الإسرائيلي قد حصلو على دعم مالي
نبدل إيجار ومفروشات إلى حين انهاء إعادة بناء منازلهم على
ـقة حزب الله.
لم ينف نصر الله دعم إيران وسوريا لحزب الله.
لمال الحلال الشريف النظيف وغير المشروط".
حول المبادرات العربية لدعم لبنان، فقد وصفها نصر الله بأنها
لا زالت متواضعة".
قال: "لو تبرعت دول الخليج بفارق سعر النفط الذي ارتفع جراء
حرب لدعم شعب لبنان، فهذا سيساعد كثيراً".
أضاف أن ما قُدم للبنان من دعم من الدول العربية "لا يتناسب
م حجم ما أصابه أو حجم الصداقة".

فالح عبد الجبار



تقرير اخباري

Alhorla

Papers of Madness

Faleh Abdul- Jabbar

أسميها الهورلا- أي أوراق الجنون، و أسميها "قصة حرب معلنة". وأسميها آلام ذاكرتي اللبنانية.

استغرقتني خربشة هذه الأسماء هنيهة خاطفة. جاءت هكذا بلا سابق تفكير. أحدها مستمد من عنوان كتاب مذكرات فرنسي كلاسيكي - محدث، لعله موباسان إذا لم تخنّي الذاكرة، دبجها كاتبها لحظة أطبقت عليه أبواب الجنون، وفشل، وهو الكاتب المفوّه، في أن يجد لذلك الجنون لساناً يفصح ويجاهر. أجدني اليوم إزاء الحرب في مثل هذا الخرس. ماذا يفعل الأبكم غير أن يتأمل فورات صمته؟

العنوان الثاني هو تذكير برواية غابرييل غارثيا ماركيز "قصة موت معلن" و بطلها اللبناني - اللاتيني سليم نصار، العاشق القتيل، سارق غشاء العذارى، في بلد يقدس البكارة ويحب الثأر لفكرة الشرف المهدور. كان موته ثمن الهوى، وانقطعت حياته الفتية، بموت مجاني يحيلني إلى مئات العشاق الذين ماتوا بالمجان بسكين الحرب، وثأر الخوذة العسكرية. العنوان الثالث يختصر عمراً، فذاكرتي اللبنانية مديدة تشكلت في سبعينات القرن الماضي وانقطعت في ثمانيناته ثم عادت في مبتدأ الألفية الجديدة. وهي سلسلة متصلة في مدينة أحبها بأضعاف ما يمكن أن تحبني. لن أكتب عن الأشلاء المتطايرة ولا عن المعارك، بل عن الانساني، اليومي، المعاش، والشخصي، عن الأحياء، الشهود، متأملاً في ثنايا ذلك معاني ما تعلمناه، مفاهيم ومقولات و مثلاً أفلاطونية عليا.

دار ميزوبوتاميا
MESOPOTAMIA
Design: Mohamed Hayawi